قصص من الأدب الصيني القديم

تأليف

مجموعة كتاب

جمعها

لين بوت نج

ترجمة

محمد حلمي محمود

الكتاب: قصص من الأدب الصيني القديم
الكاتب: مجموعة كتاب
جمع : لين بوت نج
ترجمة: مُحَمَّد حلمي محمود
الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

قصص من الأدب الصيني القديم / مجموعة كتاب ، جمع: لين بوت نج، ترجمة: مُحَمَّد حلمي محمود
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٥٦ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٢ – ٨٦٩ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان   رقم الإيداع : ٢١٤٢٢ / ٢٠١٨

قصص من الأدب الصيني القديم

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

كيرلي بيرد

للكاتب الصيني القديم: توكوانج تينج

كان عالمًا بالفروسية والمغامرة والرومانسية، من الملاحم الجريئة والفتوح الواسعة، من الأعمال الغريبة التي يفعلها رجال أطوارهم غريبة، وقد حفل بها بيت تانج العظيم.

ولأمر ما كان رجال ذلك العهد أضخم حجمًا، وخيالهم أوسع أفقًا، وقلوبهم كانت أكثر طيبة، ووجوه نشاطهم أغرب وأعجب، وكان من الطبيعي ما دامت إمبراطورية (سوي) سائرة نحو الانهيار أن تغص الدولة بالمشعوذين بحيث أشبهت غابة مملوءة بالفيران. في هاته الأيام كان الناس يقامرون بحظوظهم على مستويات عالية، وكانوا يتبارون مكرًا بمكر، وذكاء بذكاء، وكانت لهم معتقداتهم وخرافاتهم وكراهيتهم وإخلاصهم العظيم.ومرة عثروا على رجل من الصلب له قلب من ذهب.

كانت الساعة التاسعة صباحًا، وكان (لي تسينج) وهو شاب في مفتتح عقده الثالث قد فرغ من عشائه، واستلقى في سريره في ضيق وحيرة وغضب لسبب من الأسباب، كان شابًا طويل القامة متين البنية ذا شعر أشعث، ارتكز على عنق وكتفين رشيقتين وحرك أحد كتفيه وهو متكاسل، حيث كانت له قدرة غريبة على جعل عضلاته تقفز إلى أعلى دون أن يلوي ذراعه، كان شابًا طموحًا جَمَّ النشاط، ولم يكن لديه ما يشغله.

كان قد قابل الجنرال (يانج سو) في صبيحة ذلك اليوم، وتقدم له بخطة أعدها لإنقاذ الإمبراطورية، وكان قد استيقن أن الجنرال الباون الشيخ لم يكن مستعدًا لقراءتها، وأسف على أن كلف نفسه مجرد لقاء الجنرال. أما الجنرال –وكان منوطًا به الدفاع عن العاصمة، في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور يلهو مع النساء في (تانكنج)– فقد جلس هناك على أريكته رقيق الحاشية راضيًا عن نفسه، وكان وجهه ككتلة من لحم الخنزير بشفتيه المكتنزتين والانتفاخيين الكبيرين تحت عينيه، والدهن الذي يتدلي تحت ذقنه، وخيشومه الغليظ المتمدد، حيث كان تنفس الخنزير وقباعه يسمعان بنظام.وحفت به عشرون غادة اصطففن صفين يحملن بأيديهن فناجين بأطباقها، وحلوى ومنافض ومباصق، كانت المنافض مصنوعة من شعر ذيول الخيل بطول يزيد على قدم، ومثبتة بمصهور حجر الشب (أو كانت ذات مقابض من الخشب المطلي باللون الأحمر، كانت أقرب من الزخرف منها إلى الفائدة)، وكانت ذيول الخيول الحريرية البيضاء تتأرجح في رشاقة على بطئها، ولم تكن ثمة صورة أعظم إقناعًا بعدم المواءمة بين هذا الوضع والمركز السامي الذي يشغله، ولم يكن هناك تباين أجمل من ذلك التباين بين الوضع الممتاز والشهوانية المنحطة.

وقف (لي تسينج) كالجندي، ملفوح الوجه مطرقًا طويل القامة وكأنه مبعد عن هذا المنظر، كأن حجابًا من الأفكار قد أسدل على عينيه، كانت الدولة كلها في ثورة.وهنا كانت هذه الكتلة من لحم الخنزير يحيط بها ستار من لحم الإناث وقد ساد الاعتقاد –بحق– أن أجسام الشابات من النساء قد ساعدت على الاحتفاظ بدفء الغرفة.

نظر بانج سو إلى بطاقة الزائر وقال في نبرة المتعب المتضايق: من أنت؟

"أنا (لا أحد)، ظننت أنك في أوقات كهذه ربما تفتقد رجلًا له فكرة وخطة، وأنك بهذا تكون أحسن لقاء، وكان في مقدورك أن تسألني الجلوس".

وكان يسمع في مكان ما صوت نفس قصير أشبه بالشهيق، وكثيرًا ما وقعت المنفضة على الأرض فتلقتها فتاة طويلة هيفاء ترتدي ثوبًا قرمزيًا، ورفع (لي تسينج) بصره فرأي عينين سوداوين جميلتين، فيهما قلق ودهشة تتطلعان إليه.

- ماذا تريدين؟

- لا أريد شيئًا، ألا تريد أنت شيئًا يا صاحب السعادة؟

- أنا؟ وغمغم الجنرال بهذه الوقاحة.

- أعني ألا تبحث عن شيء؟ ربما عن خطة تنقذ بها الإمبراطورية أو رجل صاحب عزم.

- خطة؟

- أعتقد أنك لا تريد شيئًا، وأخشى أن أكون مضيعًا وقتك أيها الجنرال.

لكنه أخرج الخطة من جيبه حين طلبها الجنرال، ورأى الجنرال يضعها في تجهم على الكرسي القصير القائم على يمينه في شيء من المجهود يبدو به مؤدبًا، ثم سأله بعد ذلك: "أهذا كل شيء؟"

فأجاب (لي) بنعم، ثم نهض وانصرف.

وحين كان يتكلم مضت ذات الرداء الأحمر تحدق فيه، وكانت عيناهما قد تلاقتا، وعندما استدار ليخرج من الغرفة، أسقطت منفضتها مرة أخرى، وكانت هذه هي اللمحة الوحيدة المبهجة في تلك المقابلة، وراح يقهقه في فراشه حين مرت بخاطره الطريقة التي كانت تحدق بها فيه ذات الرداء.

وما لبث أن سمع نقرة خفيفة على باب مخدعه، من ذا الذي يزوره يا ترى في تلك الساعة؟ لا يمكن أن يكون الجنرال قد قرأ مذكرته. ونهض فوجد غريبًا بالباب يرتدي معطفًا أرجوانيًا وقبعة، ويمسك بحقيبة معلقة في عصا قد وضعها على كتفيه.

– من أنت؟

– أنا الفتاة النافضة في دار الجنرال يانج، هل أدخل؟

وما لبث (لي) أن ارتدى معطفًا ثم سألها أن تدخل، وقد أقلقته زيارتها الغامضة وتخفيها في الملبس، وطرحت الفتاة رداءها المستعار، وكانت بين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، وخلعت قبعتها فكشفت عن جسد لدن في

(سترة) موشاة وسروال أحمر يشبه حمرة الشفق، ونظر (لي) إلى المرأى الجميل المضطرب، وحيته الفتاة برأسها ووجهها الأبيض إلى أسفل، ثم أوضحت أمرها قائلة:

– سامحني.. لقد رأيتك مع من كانوا بحضرة الجنرال صبيحة اليوم، وأمكنني معرفة عنوانك من بطاقة زيارتك فجئت لأراك.

هكذا فعلت.

وتتبعته عينا الفتاة وهو يربط حزام ردائه، ثم راحت تتطلع من النافذة:

– أرجو أن تصغي إلي، لقد وليت الأدبار.

– وليت الأدبار بمثل هذه البساطة، وأنت تعلمين أن رجال الشرطة بتلك المدينة بأسرها سوف يكونون في أثرك؟

ومضت الفتاة تقول وعلى وجهها بسمة حلوة فتانة: لا عليك، إن لي صاحبة شابة تريد أن تأخذ مكاني، وهذه الجيفة التي يسمونها الجنرال لن تشعر بغيابي، إن هذه الدار من الداخل كالإمبراطورية نفسها، وليس من فرد واحد يخلص لذلك السيد، بل هم في الحقيقة يمقتونه، وليس لهم مطلب سوى إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وسألها (لي) أن تجلس في أحسن كراسيه، وكانت عينا الفتاة لا تزالان عالقتين به، قالت: يا مستر (لي) لقد قرأت مذكرتك.

– أحقًا قرأتها؟ وماذا ترين فيها؟

– أعتقد أنك كنت تلقي الدر أمام الخنزير.

فاغتبط (لي) وقال: وهل قرأها هو؟

– كلا، وماذا تعتقد؟

ورأى (لي) في عيني الفتاة ذكاء ملحوظًا، فابتسم لها وقال: هكذا تفكرين في الهرب.

"دعني أوضح لك" وهمت بالجلوس في الكرسي متئدة: "كل امرئ يعرف أن أيام الإمبراطورية معدودة، وأن الطوفان آت، كل واحد يعرف ذلك إلا هذه الجيفة، إننا نحن الفتيات نعرف ذلك، ونحن نتشوف إلى مستقبلنا". ثم سكتت الفتاة برهة قصيرة وعادت تقول: "كثيرات قد ولين الأدبار، ولن يمضي سوي عام منذ الآن ثم لن يكون هناك (جنرال وانج). لقد خيل إلي حين رأيتك صباح اليوم أنني أحب التعرف عليك".

وطفق (لي) يدرس الفتاة، ولم يرنحه جمالها بقدر ما رنحه سعيها إلى الهرب وشغفها بمعرفة المستقبل، وقد عرف تمامًا ما عساه أن ينزل بفتاة في مكانها عندما تصل الحرب إلى العاصمة، ويهرب الجنرال أو يقبض عليه، سوف يستولي الجنود عليها فيختطفونها أو يبيعونها أسيرة.

كانت فتاة فارعة رشيقة القد، عيناها متباعدتان متسعتان، أطول قليلًا من المعتاد، وعظمتا وجنتيها البارزتان إلى حد ما قد أكملتا استطالة وجهها.

"ما الذي تستطيع فتاة أن تفعله؟ إني جادة وأرجو أن تصدقني" إن نغمة الحزن في صوتها، والنظرة الجادة في عينيها ومسلكها، وطريقة حديثها، كل هذا قد خلب لبه.

وسألها (لي تسينج): ما اسمك؟

– (تشانج)

– وأي مرتبة؟

– "رقم واحد في عائلتي"، ثم نظرت إليه المرأة نظرة طويلة وقالت: "مستر لي، لقد رأيت مئات من الناس جاءوا ليروا الجنرال، لكنني لم أجد مثلك قط". كان من الجلي أنها تقصد بالهرب طلب الأصلح، وأنها قد اختارت أن تكون معه، وقد اعترف فيما بينه وبين نفسه أنه لا يأبى أن تكون عنده.

– سوف يكون من الشاق يا مس تشانج مشاركة جندي في حياته شهر هنا، وشهر هناك، ماشيًا، غازيًا، في شك وخطر.

– لقد عرفت كل هذا من قراءتي مذكرتك.

– لم تشاهديني إلا صباح اليوم، فكيف تأتي لك أن تعرفي أنني خير من يصلح لك رائدًا؟

– رأيتك تحمل الجنرال حملًا على أن يعتذر عن عاداته المستهجنة، ولم يجرؤ أحد غيرك على ذلك من قبل، فقد كنت تتكلم غير هياب، فقلت في نفسي: إنه لرجل. فإن قلت نعم، عدت وأعددت المعدات النهائية.

عندما جاءته الفتاة، لم يكد (لي) يصدق، وكان في سروره وطربه للمديح مثلما كان في خشيته للعواقب؛ لأنه كان معدمًا، وكان يتطلع من النافذة بين الفينة والفينة ليرى هل جاء في أعقابها أحد؟

ومن الغريب أن الفتاة بدت غاية في الهدوء، وقد ثبتت عيناها عليه بشغف، وكانت تتبعه بنظراتها حيثما ولى بوجهه.

وسألها لي تسينج: أليس لك أقارب؟

– نعم، وإلا فما كنت في عداد هؤلاء الخدم، إني لسعيدة.

قالت ذلك فجأة، وكانت هذه هي الأمارة الوحيدة على ذلك القلق الذي كان يتسلل طوال الوقت من ضوء عينيها.

– ليست لي وظيفة كما تعلمين.

– لكنك طموح، ولسوف تنهض بجلائل الأعمال.

– وكيف عرفت ذلك؟

– المذكرة.

فعقب على ذلك بابتسامة الشيطان: "أجل المذكرة، لقد كان عالمًا موهوبًا، وكان حسن الحظ دائمًا وكانت خطته تلك تمتاز بالوضوح والجرأة وتقوم على الحكمة لا الغباء"، ثم قال: "تعنين أنك وقعت في هوى تلك القصاصة من الورق؟"

"نعم هذا ما حدث، أو بالاحري قد وقعت في هوى الرجل الذي كتبها، ومما يبعث على الأسى أن الجنرال أمر بحفظها".

ولم تكن قد باحت له بعد بما استحوذ منه على فؤادها، إنه منظر رأسه الجميل قائمًا على عنق قوي ممشوق، وكتفين عريضتين في اعتزاز، وعيناه الرائقتان ومرآة العالم الذي تفصح كل بوصة فيه عن رجل وعن جندي.

ولم تمضِ غير أيام حتى ترامت إلى مسمع (لي) شائعة مؤداها أن حرس الجنرال كانوا يجدون في أثر الفتاة، وبرغم أن البحث كان أكيدًا كما كانت قد أخبرته الفتاة، فإن (لي) دسها في ثياب رجل وخرج وهي برفقته على ظهري جوادين.

وسألت: إلي أين تذهب؟

– نحن ذاهبان لنرى صديقًا لي في تايوان.

كان السفر في تلك الأيام المضطربة أبعد ما يكون عن الأمان، بيد أن (لي) لم يكن يخاف شيئًا؛ فلقد توافرت له القوة الجسمانية، وكان في مقدوره تشغيل اثني عشر رجلًا في آن واحد إذا عز عليه وجود كمين مناسب، كان واحدًا من ذلك الضرب من المحاربين الشجعان، عالي الهمة، وكان متحمسًا لإمبراطورية (سوي) المتداعية الأركان، قديرًا على جمع الصحاب، مدركًا لموقفها السياسي والجغرافي، درسهما ليكون على استعداد للقيام بالثورة إذا ما دعا الداعي، وكان هناك مثله كثير من الرجال يجوبون الآفاق، مستخفين عاملين في السر، ينقبون عن رفاق شجعان يمتازون بالأمانة والإخلاص.

وسأل الفتاة وهما يجدان في المسير راكبين: هل تؤمنين بالقدر؟

– وما معنى هذا؟

– القضاء والقدر.. هنالك شاب هو الابن الثاني لعائلة تايوان يعرفه صديقي (ليو وينتسنج) حق المعرفة، وهو الآن يدبر مؤامرة بغير علم والده، وليو صاحب ثقة كبيرة في هذا الشاب، ويعتقد أنه هو التنين الحقيقي.

فشهقت الفتاة وقالت: التنين الحقيقي؟!

فأجابها لي وقد أظلمت عيناه: نعم، وربما تسنم عرش التنين ذات يوم، فإن له وجهًا غير عادي. هل تؤمنين بعلم الفراسة؟

– بلا ريب؛ ولذلك اخترتك أنت.

– لا أستطيع إخبارك بشيء، ولا شك أنه حسن البزة، متين البنية وما أشبه ذلك، لكني لا أستطيع أن أصفه وصفًا دقيقًا، وسوف تشعرين بحضوره حالما يدخل، فإن شيئًا يهب من شمائله كما تهب من بعض الرجال ريح الزعامة، وددت لو رأيته يا تشانج، إذن لعرفت ماذا أقول.

– وما اسمه؟

– (لي شيمهن) والناس يدعونه (أرلانج)، إنه الابن الثاني للقائد.

كان لي شيهمن بالطبع الرجل الذي كان عليه أن يؤسس إمبراطورية (تانج) العظيمة، وأن يصبح أعظم الأباطرة تمكنًا من قلوب الناس في الألف سنة الأخيرة، مقدامًا وعاقلًا ورحيمًا، ينبئ حكمه عن عصر ذهبي في التاريخ، وسوف يكون من الطبيعي حقًا افتراضنا أن الجمال الخلقي لمثل هذا الرجل تنم عنه فراسته، ولا ريب أن من يفعل مثل هذه الأشياء شخص غير عادي، وأن وجهة سيدل عليه.

أمام خان صغير توقف عنده (لي) والفتاة في لينجشييه، وكان السرير قد وضع من قبل وقد قبع في أحد أركان الغرفة موقد صغير من الخزف عليه طعام يغلي، وبعد أن أماطت الفتاة عن نفسها لثام التخفي، شرعت

تعقص شعرها المفرط في الطول، فعلت ذلك على السرير، بحيث لا يمس شعرها الأرض أما (لي) فكان خارج المكان يطمر حصانه.

ووصل إلى الخان رجل ذو لحية حمراء جعداء نصف مكتملة، وكان يركب حمارًا أعجف، وألقى على الأرض -دون احتفال أو التفات إلى وجود الفتاة- حقيبته الجلدية التي يتوسدها أحيانًا، ثم اضطجع عليها وتمدد على الأرض ناظرًا إلى الفتاة بعينيه النافذتين، ولقد أغضبت وقاحة الغريب (لي)، لكنه مضى في تنظيف حصانه بالفرشة وعينه محدقة في هذا الوافد الغريب.

أما الفتاة فكانت هي الأخرى تنظر إلى الغريب من طرف خفي، كان وجهه أقرب إلى لون النحاس، وكان يرتدي (سترة) من الفرو وسراويل، وقد علق بواسطة سيفًا قد برز منه، والتفت الفتاة حواليها ممسكة شعرها بيداها، ومشيرة إلى (لي) بيمناها ألا يغضب وأن يترك الرجل وشأنه.

وما إن فرغت من لم شعرها حتى تولت إلى ذلك الغريب وسألته بأدب جم عن اسمه؛ وذلك ليكونا على مودة، أما الرجل فنهض ببطء وقال إن اسمه تشانج.

- ومن أيه مرتبة؟

- الثالث في عائلتي.

فقالت الفتاة الجميلة: أنا الأخرى اسمي تشانج فأنا أختك في الحزب إذن.

فسألها الرجل: وما ترتيبك؟

فأجابته الفتاة: أنا الكبرى في عائلتي.

– أما والحالة هذه، فأدعوك (أماي) (أي الصغرى رقم واحد)، وإني ليسرني أن ألاقي شريكًا لي في الجماعة مثلك.

وبينما كان (لي) يدخل قالت له الفتاة: تسينج، ادخل وتعرف على أخي الثالث.

كان الغريب رجلًا حلو المعشر، لكن كلماته جاءت سريعة في نبرات واضحة ذات رنين، وقد بدت عليه سيما الرجل جواب الآفاق الذي عرف أين كان يقف، وراح يتفحص بعينيه (لي) والمرأة، ولاح كأنه قد حصل على استنتاجه عنهما، ودرس لي هيئة الرجل وملابسه وقرر أنه جندي من جنود الخط مثله، كان قد رغب في أن يقابل رجالًا مثله، رجالًا كرماء لهم عادات وكلمات قصيرة يحقرون الحياة التقليدية، حياة المواطنين الذين يؤثرون السلام والحذر والخنوع، رجالًا يهبون للعمل عندما تسنح سانحة، فيعملون كرجال من صلب، مخلصين لأصدقائهم قتالين لأعدائهم.

وألقى كيرلي بيرد سؤالًا: ماذا يطهى في هذا الوعاء؟

فأجابت الفتاة: لحم ضأن أوشك أن يتم نضجه.

– أنا على وشك الموت جوعًا.

وخرج (لي) وعاد ببعض كعك الحنطة ليشارك الغريب في الطعام، وأخرج كيرلي بيرد مدية حادة ليقطع لحم الضأن ويفصل الغضاريف لحماره، وأكل بلا اعتبار للعادات ثم فرغ من طعامه بسرعة مذهلة.

وقال كيرلي موجهًا القول للفتاة : كلاكما زوج مفرح، وعلى فقركما فأنتما طريفان، هه؟ كيف تأتى لك أن تلتقطيه؟ إني مخبرك بحقيقة أمرك: أنت لست متزوجة. لقد هربت من شيء ما، هل أصبت الحقيقة؟ كلا، لا تخافي يا ماي.

وكان في كلماته بعض الدفء وهو يوجه القول للفتاة.

لم تكن عينا (لي) تختلجان، لكنه ساءل نفسه كيف تأتى علم ذلك للرجل؟ هل كان في مقدوره أن يقرأ الوجوه؟ ربما دلت أظافر الفتاة الطويلة على السر في كونها عاشت في مبنى يحوطه الثراء.

فأجاب (لي) وهو يضحك: "أخشى أن تكون صادقًا، (وتلاقت أعينهما) لقد اختارتني كما تقول أنت، لا يغض من شأن النساء أنها تعرف أن الطوفان آت".

"الطوفان؟" ولمعت عينا كيرلي بيرد ببريق غير عادي.

– على سبيل المجاز طبعًا.

واجتاحت عينا (كيرلي بيرد) الفتاة، وقد تألق في عينيه بريق الإعجاب.

وسألها: من أين جئتما؟

فأجابه (لي) بهدوء وهو ينظر إليه دون أن يحيد عنه بعينيه:

– من العاصمة.

– أجد هنا شيئًا من الخمر؟

– توجد حانة بالمكان الملاصق.

ونهض كيرلي بيرد خارجًا.

وسألت الفتاة: لماذا أخبرته؟

– لا عليك، إن لأبناء الغابة شريعة أشد صراحة مما عند الموظفين الرسميين، أنا أعرف نفسية أي إنسان عندما أراه.

– لم ترقني الطريقة التي قطع بها لحم الضأن وأنت غائب، وأطعم حماره بالمخلفات دون أن يستأذنني وكأن اللحم يخصه.

– وهذا أحسن شيء فيه، وإن كان مؤدبًا وبدينًا نوعًا لأقلقني ذلك، ويخالجني بعض الاعتقاد بأن رجلًا مثله يهتم ببضع قطع من لحم الضأن يبدو وكأنه يحبك.

– هذا لم يغب عني.

وعاد كيرلي بيرد إلى الخان وقد تورد وجهه، وراح يتكلم وقد نفرت العروق على صدغيه، وكان صوته متقطعًا وخافتًا، لكن عباراته كانت متمهلة وواضحة ومنطوقة بعناية، ولم يهتم كثيرًا بكل هؤلاء الجنرالات الذين رفعوا راية العصيان، والذين لم يبلغ أحدهم شيئًا، وبينما كان (لي) ينصت أيقن أن كيرلي بيرد كان يدبر شيئًا في قراره نفسه.

وقال له (لي) ليدفعه إلى الكلام: ما رأيك في يانج سو؟

أما كيرلي بيرد فرشق مديته الحادة على المائدة وراح يقهقه، وأغمد النصل في خشب المائدة.

– ماذا تقصد بالسؤال؟

– أسألك رأيك فيه.

وأخبره (لي) بمقابلته مع الجنرال وكيف دبرت الفتاة السبيل إلى الهرب.

– إلي أين أنت ذاهب الآن؟

- إلي تايوان حيث أستطيع أن أحتفظ بشخصيتي مجهولة لفترة من الزمن.

- لا تظن أن هذا ميسر لك، هل سمعت عن شخص غير عادي يعيش في تايوان؟

فأخبره (لي) عن لي شيهمن المعروف بالتنين الحقيقي.

- وما رأيك فيه؟

- إنه خارق للعادة.

واكتسب وجه كيرلي بيرد جدية تامة، وسأله بعد برهة قصيرة:

- يقدمك إليه، لماذا تريد مقابلته؟

- صديقي (لي وتستنج) يعرفه معرفة جيدة، وسأسأله أن يقدمك إليك، لماذا تريد مقابلته؟

- إني أستطيع أن أقرأ الوجوه قراءة صحيحة.

ولم يكن يدور في رأس (لي) سوى أنه يعده بمقابلة وهمية.

وأعدا كل شيء للمقابلة على قنطرة (فنيانج) في فجر اليوم التالي من وصولهما إلى تايوان، وعرض كيرلي بيرد أن يدفع هو أجر الغرفة، بل لقد أصر على ذلك قائلًا أنه يفعل ذلك من أجل إيماي، ثم راح يقرقع فوق ظهر حماره النحيل واختفى.

"إني على ثقة أنه إنما يحاول مشاهدة التنين الحقيقي لسبب له فيه خير". قال (لي) ذلك عندما كانا يتجولان داخلين إلى الخان، ثم قال: "يا له من رجل غريب!"

وتلاقى لي تسينج وكيرلي بيرد في الموعد المضروب، على رأس قنطرة فنيانج، وذلك في بواكير الفجر المتلفع بالضباب، وأخذ (لي) صديقه من ذراعه وبعد أن تناولا إفطارًا خفيفًا سار معه إلى دار ليو وينستنج، ولاذ الرجلان بالصمت، وهما يشعران بشيء أكثر عمقًا من الصداقة، لعله الهدف المشترك.

كان (لي) أطول قامة ممتلئ الجسم كالجنود، أما كيرلي بيرد فكان يمشي مشيه المترنح، سهل الخطا وكأنه جندي قديم محنك، له كثير من القوة في ركبتيه، لا يعبأ برحلة طولها مائة ميل.

وسأله (لي تسينج) وهو يتخيل التنين الحقيقي: "هل تؤمن بفن قراءة الوجوه؟"

- فراسة الرجل هي سجل أخلاقه، فالعينان والشفتان والأنف والذقن والأذنان ولون الوجه والبشرة، كل أولئك يروي قصة سهلة كالكتاب إذا ما عرفت كيف تقرؤه. وبيان كون الإنسان قويًا أو ضعيفًا أمينًا أو خائنًا، قوي العزيمة، أو قاسيًا أو حساسًا، أو غشاشًا، كل هذا كائن في علم الفراسة وهو أشد العلوم صعوبة، لأن الخلق الإنساني أشد الأشياء تعقيدًا.

- إذن يتقرر مصير الإنسان عند مولده؟

- وغالبًا والإنسان لا يستطيع من مصيره فكاكًا أكثر مما يستطيع الهرب من شخصه هو، ولن تجد وجهين ذوي شكل واحد، والإنسان عندما يفكر يسجل وجهه تفكيره بدقة وبلا خطأ، والمرء ما عاش تنزل به الحوادث، ولكن الطريقة التي يتقبل بها الحدث هي التي تعطي لذلك الحدث نوع أهميته ومقدارها.

ولما اقتربا من دار (ليو) لاحظ (لي) أمارة القلق واللهفة على محيا كيرلي بيرد.

وعندما بلغا الدار سبق (لني تسنيج) صاحبه إلى الدخول ثم قال: "معي صديق لي يريد مقابلة (لي أرلانج) وهو للوجوه عراف لا يخطئ، إنه بالخارج".

"أدخله طبعًا" هكذا كانت الإجابة. وهرع (لي) إلى الباب ليحتفي بكيرلي بيرد، وكان ليو يخطط من قبل مع (لي أرلانج) طريق الثورة أو (لي شيهمن) كما كان اسمه حقيقة، ولما سمع عن شخص يستطيع قراءة مصير الإنسان في وجهه سر سرورًا عظيمًا. أما (كيرلي بيرد) فقد دخل، ودعي الاثنان للمكوث حتى الغذاء، على حين بعث (ليو نيتسنج) بمذكرة إلى (لي شيهمن) للاتصال بهم هناك.

وما لبث (كيرلي بيرد) أن شاهد رجلًا يدخل الغرفة، يرتدي سترة من الفرو محلولة الأزرار، معلقة على كتفه ورأسه إلى الوراء، حقًا لقد كان

هيكلًا مهيبًا، طيب القلب أمينًا، وكانت كلمة (أناقة) كلمة لا تصدق عليه، فلما دلف إلى الغرفة، بدا كأنما يشع نورًا وكأن عينيه دون أن تتحركا تتشربان كل ما كان يحدث في الغرفة، وتحت أنفه الحاد المحدودب بشكل ملحوظ كنت ترى لحية حمراء تتموج إلى أعلى، وكأنك تستطيع أن تعلق قوسًا عليها، ورأى (لي) كيرلي بيرد يتفحص الشكل الطويل بعيني نسر.

وهمس كيرلي بيرد إلى (لي) بعد تناول الطعام: "وددت لو كان صاحبي التايواني هنا ليقابله".

ربما لا تصدق ذلك، ولكن عندما غادر المكان ظهر وجه كيرلي بيرد وكأن أحدهم قد طعنه طعنه قاتلة، سار ورأسه منكس ووجهه غائم وكان تنفسه سريعًا ومسموعًا.

وسأله (لي تسينج): "ما رأيك في لي شيمهن؟"، فلما لم يفز بجواب أعاد عليه السؤال: "ما رأيك فيه؟".

وراح كيرلي بيرد يتمتم ببطء: "أنا على يقين من ذلك ثمانين أو تسعين في المائة. أعني ربما كان هو نفسه (التنين الحقيقي). بيد أنني أود لو يرى صاحبي التايواني بنفسه، أين نتوقف عن المسير؟"

فأخبره (لي) أنه سينتهي إلى خادم.

"لا بأس من الإقامة هناك بضعة أيام، تعال معي".

وأخذه كيرلي بيرد إلى محل يبيع الحرير، وبعد برهة قصيرة جاء فسلم (لي) لفافة من ورق، احتوت قطعًا صغيرة من الفضة المفتنة تبلغ زنتها ثلاثين أو أربعين أوقية، قائلًا: خذ هذه وأعد لإيماي منزلًا طيبًا".

فدهش (لي).

"لا عليك، خذها".

وهكذا كان طريق أولئك الأبطال المغامرين.

"هل سرقت الحانوت؟".

فضحك كيرلي بيرد: "كلا، إن صاحبه التايواني صديق لي، أوتريد المزيد؟ يمكنني أن أترك له كلمة، أقبل وخذ ما تشاء، إنك لست في حال ميسرة وإني أكره أن أرى أختي تعاني المشقة. لا أعتقد أن الواجب يقتضي منك البقاء هنا أمدًا طويلًا، فاتِ إلى (لوانج) وابقَ معي، تعال في خلال شهر". ثم إنه رفع رأسه وعد على أصابعه ومضى يقول: "في الثالث من شهر فبراير سأعود فأجيء إلى حانوت خمار يقع في شرق حظائر الخيل عند البوابة الشرقية، حتى إذا رأيت ذلك الحمار وبغلًا أسود مربوطين قدام الحانوت، فاعلم أنني وصاحبي التايواني بأعلى الدار، إذن فلتصعد على الفور".

ووصلا إلى الخان وتوقف (لي) بيد أن كيرلي بيرد لم يكن على استعداد لأن يقول وداعًا، وتبع (لي) إلى داخل المكان، وعامل الفتاة كأنها أخت له

و(لي) كأنه أخوه، فأمر بطعام كبير لهما تلك الليلة، ولم تبدُ عليه الرغبة في الرحيل، ثم جلسا يتحدثان حتى ساعة متأخرة من الليل.

"أرجوكِ ألا تلتفتي إلي أيتها الأخت وأنتِ تقتربين من النوم" لكنه بقي في الغرفة، ولم يبدُ منه ميل إلى النوم، أما مسز (لي) فآوت إلى فراشها لأنها لم تستطع إبقاء عينيها مفتحتين؛ لقد تملكتها الحيرة، لكنها كانت مغتبطة، وأما كيرلي بيرد فكانت حيويته تجل عن الوصف، وفي الساعات الأولي من الصباح غلب النعاس (لي) وهو لا يزال يتكلم.

وفي بكرة اليوم التالي أيقظ الزائر الغريب الأطوار (لي) وقال له:

– أين بت ليلتك؟

– هنا على الأرض.

وبدا (كيرلي بيرد) منتعشًا على مألوف عادته، وقال: "سأشرع في الرحيل في طلب (ماونت دوتالي)؛ فإن لي أشياء معينة أريد أن أحضرها وسوف أعود إلى ٠لويانج) في الثالث من شهر فبراير، لا تنسَ، وطبعًا أريد أن تأتي الأخت هي الأخرى".

ربما كانت هذه هي طريقة هؤلاء الأبطال الذين جابوا البقاع، والذين كانوا يرتحلون سريعًا ويحصلون على الأصدقاء، تفيض قلوبهم بالحب لرفقائهم، كرماء إذا ما لاح خطأ من أحد، وإذا ما ألح رجل أن يعاملك كأخ له، وزوجتك كأخت، فلا ريب أنك محمول على حبه.

وصل (لي) وزوجته إلى يوبانج طبقًا للاتفاق الذي تم مع كيرلي بيرد فوجدا الحانة كما وصفت، فلما شاهدا الحيوانين مربوطين خارجها صعدا إلى الطابق الأعلى.

وقال كيرلي بيرد وهو ينهض: "عرفت أنكما قادمان"، ثم قدمهما إلى التايواني باعتباره طالب المنطق والنجوم والفراسة، وما يقرر حياتنا من خلال هذه المؤثرات غير المرئية، إن التايواني رجل عذب اللفظ، ولكنه لم يفه بعبارات كثيرة.

قال (لي تسينج) فجأة: "كذلك تؤثر السيف على القلم".

"نعم، فإن مثل هذه الأوقات تحتاج إلى العمل، لا إلى الكتب"

وأدهشت (لي) تلك الدقة في الملاحظة من جانب التايواني، وكان التايواني رجلًا واسع الإطلاع، وقال إنه حين كان في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره كانت مسألة تحديد مستقبله بين العلم والعسكرية صراعًا بين النزعتين.

ثم أوصلهما كيرلي بيرد إلى إحدى الغرف وقال: "يمكنكما اللبث هنا إذا شئتما وسيكون المكان آمنًا، لا تشغلا بالكما فإني أعرف ما يدور به، إن الحانوت حانوتي، فاذهب إلى الخزانة في أسفله واشتر شيئًا لطيفًا لأختي".

وهكذا بقيا في الحانة، وكان كيرلي بيرد يأتي ليجلس معهما ليجاذبهما أطراف الحديث حتى ساعة متأخرة من الليل، يناقشان الاستراتيجية العسكرية وكان لي تسينج في حاجة إلى الكثير الذي يتعلمه منه، وكان هو التكتيك الذي طبقه فيما بعد واستخدمه وحقق به فوائد جمة، لم تكن المسألة مسألة شجاعة بدنية كما يتخيل الكثيرون.

إنما كانت مسألة معرفة عدوك، أو التفتيش عن النقاط الحيوية، حيث تكون الضربة اللازمة التي تساوي مائة ضربة، إذا ما خبطت حية فإنما يجب أن تخبطها على رأسها، إنك لا تنازل عدوًا بل تحارب ما حوله وكذلك كانت الحال، وامتدت مثل هذه المناقشات إلى ما بعد منتصف الليل.

كان عالم التنجيم عاكفًا على السماء يتفحصها في اتجاه تايوان، ينظر إلى مرابط النجوم ومصادر الضياء وظواهر الغمام التي عزت كلها على إدراك (لي) و (كيرلي بيرد).

وبعد بضعة أسابيع قال التايواني أنه يريد أن يرى (لي شيهمن).

قال كيرلي بيرد: "(لي) سوف تقدم صديقي إلى (لي شيمهن)، أريد أن يخبرني عما إذا كان هو التنين الحقيقي، وسيكون هذا من الصعوبة بمكان، وعندئذ بتقرر كل شيء".

– وماذا أنت فاعل لو أنه التنين الحقيقي؟ تحاربه أم تضم قوتك إلى قوته؟

- أنا لا أحارب القضاء.

- معه إذن.

- لا تكن أبلهًا!

ثم قطع كيرلي بيرد المناقشة بضحكة منه، وهو يتمثل بالمثل الذي يقول: "أفضل أن أكون رأس كتكوت على أن أكون ذيل بقرة".

ثم ساروا في طلب مدينة (تايوان).وقدم التايواني (ليو) كمنجم عظيم يمكنه أن يتكهن بالمستقبل، وكان (ليو) يلعب الشطرنج مع بعض أصحابه، فسأل التايواني أن يجلس لملاعبته، على حين بعث (لي) (لي شيهمن) ليحضر ويراقب اللعب، ووقف كيرلي بيرد ولي تسينج حولهما يرقبان.

وجاء (لي شيهمن) واتخذ مجلسه في صمت بجانب منضدة الشطرنج ولم ينبس ببنت شفة، فكانت تلك هي الطريقة المثلى عند من يرقبون اللعب ووكز (كيرلي بيرد) (لي تسينج) دون أن يفوه بكلمة، كان العالم غاصًا بالجند المغاوير والجياد المجلجلة سيوفها بيد أن التنين الحقيقي كان على نمط مختلف، وكان التايواني الذي بدا كأنه مستغرق في لعب الشطرنج يرقب أنفاس التنين، وقد شعر بتألقاته، مختبرًا إياها ومقدرها حتى قدرها، وجلس لي شيهمن كالتمثال ذي الكتفين المستقيمتين واليدين الموضوعتين في استقامة على ركبتيه المنفرجتين، وكان حاجباه يرقصان قليلًا بين الفينة والفينة حيث راح يرقب اللعب، كان يومض من عينيه ضوء وكأنما رأى كل

شيء وفهم كل شيء، وبعد خمس دقائق دفع التايواني رقعة الشطرنج بعيدًا عنه وقال: "لقد خسرنا اللعبة بلا شك، وليس ثمة طريقة لكسبها، لقد أديت حركة رائعة لهذا البيدق. رائعة حقًا! إني أسلم لك"

وبقدر ما استطاع المتفرجون الرؤية، لم يكن إنقاذ الدور مستحيلًا.

كما ظن التايواني، لكنه كان قد عزم –على ما يظهر– أن ينقذ نفسه من صراع لا غناء فيه، فنهض من مقعده وزفر زفرة حارة.

وبعد أن انتهى اللعب تقدم الأصدقاء الثلاثة لمضيفهم بالشكر ثم انصرفوا.

فلما صاروا بالخارج، التفت التايواني إلى كيرلي بيرد وقال: "لقد خسرت لعبتك، إن رجل الأقدار داخل الدار فلا جدوى من المحاولة، لكن عليك أن تبحث عن أرض أخرى تفتحها".

لأول مرة رأى (لي) كيرلي بيرد يتدهور وكيانه ينحل، لقد حدث شيء لكيرلي بيرد داخل نفسه.

"لقد تبدل الموقف، وإني لأخشى أن أكون أنا قد غيرت خطتي، انتظرني عند لوايانج وسأعود في ظرف أسبوعين"، قال ذلك (كيرلي بيرد) ثم مضى وحده.

لم يرد (لي) أن يوجه أي سؤال، بل عاد إلى لوايانج بصحبة التايواني.

ولما عاد كيرلي بيرد قال للمسز (لي) أحب أن تأتي لترى زوجتي أيتها الأخت، عندي شيء هام أريد أن أصنعه أمامك أنت والمستر لي.

لم يعرف لي تسينج قط من قبل أين كان يعيش كيرلي بيرد، وقد ظل دهشًا من أحوال الرجل، واقتيد إلى مدخل يحتوي على باب صغير ذي ضلفة واحدة، وعند دخول الفناء الأول، رأوا قاعة ذات أثاث فاخر ووقف هنا وهناك خدم من الذكور والإناث كثيرون، وشيعوا إلى الغرفة الشرقية حيث يتهيأ الضيفان ويلبسون، وكانت منضدة الزينة والمرايا القديمة والأوعية البرونزية والمصابيح البلورية والموائد وخزانات الملابس والستائر كلها من أحسن الأنواع، وكان بعضها غاليًا ولا يقدر بثمن.

وما لبث كيرلي بيرد أن ظهر ومعه زوجته فقدمها إليهم، وكانت امرأة في الثامنة والعشرين أو في الثلاثين ذات جمال ملحوظ، وقد بهر لي وزوجته الكرم العريض الذي أشعرهما بأنهما ضيفان كبيران.

وعند الغداء عزفت بنات موسيقيات مقطوعات غريبة بديعة الألحان لم يسمع (لي) مثلها من قبل، وعندما كادوا يفرغون من الغداء، دخل خدم يحملون صينيات عشر من الخشب كلها مغطاة بقطع من الحرير، ووضعوها على كراسٍ منخفضة بغير ظهور، مسندة إلى الجدار الشرقي، فلما تم أعداد كل شيء قال كيرلي بيرد: "لي، أريد أن أطلعك على شيء".

ورفعت الأغطية الحريرية فرأى (لي) على الصينيات وثائق وتسجيلات وحزمًا من المفاتيح الضخمة.

قال: "إن في هذه ما يساوي مائة ألف دولار تقريبًا،إنها تحتوي على بعض الحلي وأشياء أخرى ثمينة، وإني لمقدمها لك على سبيل الهدية، فما قولك؟ لقد أعددت الخطط اللازمة وجمعتها، انتظر الوقت الذي أنظم فيه جيشًا وأبتاع قوات وأسلحة وذخيرة، فقد أملت في أن أقوم بجلائل الأعمال، أما الآن فلا فائدة لي فيها، إن (لي) التايواني الشاب هو التنين الحقيقي كما أنا مقتنع، خذ هذه وساعده على إنجاز ما هو مقدر له أن يفعل، إنه رجلك فلا تنسَ الخطط التي علمتك إياها، وفي خمس أو عشر سنوات سوف يكون باستطاعة لي شيهمن أن يفتح كل بلاد الصين، فاخدمه بإخلاص وستكون القوة والسعد مكافأتك، أما أنا فلي شئوني الخاصة التي سأباشرها، وبعد اثني عشر عامًا من الآن، عندما تسمع أن أحدهم قد اجتاز حدود الصين وفتح أرضًا أجنبية وأسس مملكة جديدة، فاعلم أنه هو صديقك القديم، وتستطيع أنت والأخت أن تتجها نحو الجنوب الشرقي وأن تشربا كأسًا في صحتي.

ثم استدار وقال لجميع من كان بالدار من الخدم: "منذ اليوم سيكون السيد (لي) سيدكم، والمالك لكل ما في يميني، وستكون أختي هي سيدتكم".

وبعد أن أعطى التعليمات اللازمة رحل، وبعد أن ارتدى ملابس السفر خرج هو وزوجته على ظهور الخيل يتبعهم خادم واحد، ثم لم يروه بعد ذلك.

في السنين التالية شغل (لي) بكسب المعارك في الحروب الطويلة التي وحدت الصين تحت (إمبراطورية تانج) العظيمة، وأصبح لي شيهمن أعظم إمبراطور يحكم البلاد حتى سادها السلام، وكان لي تسينج صديقه الموثوق فيه وصاحب سره، والقائد العام لجيوش (تانج).

وذات يوم قرأ (لي) في نشرة حربية أن بعضهم ممن لم يذكر اسمه قد أنزل قوة من ثلاثين أو خمسين ألفًا من الرجال في (فويو) على طول الحدود الجنوبية لبلاد الصين، ونصب نفسه ملكًا. وكان (لي) على ثقة بأنه صديقه القديم الذي ساعده هو وزوجته في سني شبابه، وكان مما لا يكاد يصدق أن الرجل قد اختار النسيان وأن يبتعد عن الصين مفضلًا ذلك على أن يكون تابعًا لأحد، وكان قد استقر رأيه على أن يكون ملكًا في أي مكان، والآن قد أصبح ملكًا.

وعندما ذهب (لي) إلى منزله في تلك الليلة أخبر زوجته بما قرأ في النشرة الحربية.

قالت وقد ترنحت أعطافها: كيرلي بيرد الشيخ الطيب؟!

– أجل، أنه كيرلي بيرد الشيخ الطيب، لقد ظفر بما أراد.

وعندما تذكرا آخر كلمات صديقهما أشعلا شمعتين حمراوين بعد العشاء ومضيا إلى الفناء، وعندما وقفا هناك مولين وجهيهما شطر الجنوب الشرقي، شربا نخب صديقهما القديم.

وقالت زوجته بصوت عالٍ في استغراب: "ألا تستطيع أن تفعل له شيئًا، كأن تسأل الإمبراطور أن يمنحه وسامًا؟"

"فلندعه وحده، فإن المكافآت وعلامات الشرف التي يمنحها الإمبراطور سوف تزعج أمنه، إنه ملك وسيد لا يباريه قرين أينما حل، إنه رجل رائع!" قال (لي تسينج) ذلك، ثم أضاف وهو يزفر "نعم، رجل عظيم"

القرد الأبيض

لا يعرف مؤلفها

لقد سمع كل الناس –ولا ريب– كيف وقع الجنرال (أويانج) أسيرًا في إحدى المعارك، وكيف قطع رأسه، وأبيدت أسرته عام **٥٦٩** للميلاد عندما ألقى بنصيبه مع الثوار، وتختلف الآراء في مصيره فيظن بعضهم أن الجنرال قد حق عليه ذلك لأن أسرته قد تمتعت أجيالًا طوالًا بحب الإمبراطور وثقته، وهم لا يأسفون إلا على الحقيقة بأن السجل الحافل لمثل هذا الجنرال العظيم وأبيه لابد أن ينتهي بالفضيحة والكارثة.وآخرون مثل (تشيانج تسونج) يشاركونه مصابه ويعتقدون أنه قد أوقع به في الفخ، وأنه اضطر إلى الثورة لأن الإمبراطور قد ارتاب في مبلغ قوته في الجنوب.

بيد أن هذا يجانب الحقيقة، فقد كان الرجل في سن الثلاثين، وقد حلت به ووقع له شيء كان من شأنه أن يبدل من طباعه، فقد جُرِحَت كبرياؤه؛ فإن جنرال الجنوب ذلك المسالم قد أصبح رجلًا مسرورًا فظًا تعسًا، وقد ذكر صديقه تشيانج تسونج، الذي استطاع أن ينمي ابنه ويربيه في مكان جاف الخبز بشيء عن ذلك في قصته التي رواها عن (القرد الأبيض)، لكن ذلك الرجل طبقًا لرواية أركان حرب الجنرال وهو المستر (لاي) من كوانجتونج، وكان عضوًا قديمًا في أركان حرب الجنرال، لم يسرد تلك القصة برمتها ولم يعش الجنرال طويلًا بعد ذلك الذي أصابه من سوء

السمعة، وها هي ذي القصة كما رواها المستر لاي، وهو الآن في الستين من عمره وقد شاهد أحداثها كلها.

كنت في خدمة الجنرال منذ ورث مركزه ولقبه بعد وفاه أبيه، ولأنني كنت عضوًا قديمًا في أركان حرب أبيه، فقد تمتعت بثقته، وكان للجنرال زوجة شابة جميلة وكانت تنحدر من أسرة عريقة، وذات يوم اختطفت، وقد عرفنا كافتنا –وقد اعتبرها كل فرد منا شيئًا مسلمًا به– أن القرد الأبيض قد فعلها مرة ثانية، ولم أحب أن أرى وجه الجنرال وهو مقتعد مكانه وحده إلى طعام الفطور.

كنا عندئذ نتوقف عن مسيرنا في شانجلو، وكان الجنرال قد حذره المحذرون من أن يصطحب امرأته الشابة الجميلة معه في جولته في المنطقة الجنوبية الغاصة بالسكان من الوطنيين، وقد اعتاد القرد الأبيض أن يستولي –في مسافة مائة ميل تقريبًا حول منطقته– على النساء الصينيات، اللائي كن يختفين اختفاءً تامًا فلا يوقف لهن على أثر وأوقف الحراس حول الدار ليل نهار، ونام عدد من الخادمات في غرفة السيدة كاحتياط إضافي، وبعض الرجال من الخدم في الغرفة التي قبلها، وفي ساعات الصباح القصيرة، حين استيقظت إحدى الخادمات وسمعت صوتًا،كانت زوجة الجنرال قد اختفت، ولم يعرف أحد كيف دخل الخاطف لأن كل مكان مؤمن. خرجت الخادمة وثوبها محلول الأزرار وهي تولول صارخة بأن سيدتها قد اختفت.

وبدأنا المطاردة وكانت الدار محطة عسكرية على طريق جبلي مشهور، مرتفعة مائة قدم فوق الصخرة الوعرة التي قامت على حافة تطل على خانق عميق، وكانت على العطف الآخر للخانق صخرة قد غطاها الطحلب، وقد واجهت الباب على مسيرة خمسين قدمًا فقط من ذلك المنسوب، وجعلت سحابة ثقيلة الرؤية متعذرة على مسافة عشرين قدمًا، وذلك في بواكير الفجر، وبذا تصبح مطاردة الخاطفين على تلك الصخور المغشاة بالضباب خطرة للغاية، فإن زلة قدم أو الخطأ في منعرج الطريق سيعني الردى في الخانق، ويكون في ذلك الموت العاجل، وبعد نصف ساعة من المطاردة الفاشلة توقفنا عن ذلك.

كان الجنرال بادي الغلظة حين عاد معنا واستجوب الخادمة عن التفاصيل، فقد قبض على منكبي الفتاة وراح يرجها ثم سألها آمرًا: ماذا رأيت؟

أما الفتاة فأنشأت تبكي وقالت: "لم أرَ شيئًا، وحين سمعت صوتًا أيقظني كانت السيدة قد مضت".

ولأول مرة رأيت الجنرال يفقد أعصابه فقد خبط الفتاة على رأسها، ولم تره ألبتة خارجًا عن طوره مثلما كان حينئذ، فقد كان رجلًا عادلًا، وكان لنا نحن الأعضاء الأكبر سنًا في هيئة أركان الحرب إعجاب شديد به، كلما شاهدنا الكيفية التي كان يقود بها الغزوة في شيه هسيينج.

وسأل: "هل رأى أحد منكم القرد الأبيض مرة؟"

لم يره أحد منا، إلا أنني أخبرته أن القرد الأبيض قد رآه كثير من الناس في مدن متباعدة، على مسيرة تصل مائة ميل من حولنا، وقد لاحظه جامعو الحطب من بعد كهيكل أبيض يتسلق جوانب الجبال المنحدرة المغطاة بالكروم، ثم يختفي في القمم التي تغطيها السحب.

وسألني الجنرال، وكان في أثناء غزواته التي قام بها مؤخرًا قد حبس قبائل السكان الأصليين المختلفة في مستقرهم الجبلي المسمى بـ(الكهوف)، وكأنهم في زجاجة، سألني: "وهل تظنه أحد السكان الأصليين وأن هذا العمل مقصود به الانتقام؟".

"لا أعرف، إن سكان المدن يقولون عنه أنه اعتاد المجيء إلى المدينة بين الفينة والفينة؛ لتأدية عمل قانوني بحت، حاملًا غزالًا وشيئًا من جلد الحارود (أي كلب الماء) أو قرون الخنزير وربما علبة أو علبتين مجففتين من السمك، يتجر فيهما بالمقايضة. بمدى المطبخ والسواطير وأدوات النجارين والملح، وكان يتكلم الصينية بطلاقة، وتاجر بأمانة، ولم يستطيع أحد أن يغشه، فإذا حدث ذلك عثر في اليوم أو الأسبوع التالي على ذلك الرجل ميتًا بسهم في ظهره".

- وما سكنه؟

قال الملازم (وانج) الذي ولد في هذه المنطقة، إنه لا يشبه المياوس ولا الياوس ولا الهولاوس؛ لأن هؤلاء القبليين قد امتازوا على وجه العموم بسمرة البشرة وضآلة الجسم، وبوجوههم الجعداء حتى إبان شبابهم. وقال

الذين رأوا القرد الأبيض إنه إذا وقف بلغ طوله خمس أقدام وعشر بوصات، كتفاه مستديران، وذراعاه مفتولان، لا يكاد يظهر له عنق، زاد ملامحه إزعاجًا بياض حواجبه ورموش عينيه، والشعر الذي يغطي كل صدره وذراعيه ورجليه، كان إذا جرى تمس نعلاه الأرض دائمًا، وهذا شيء أكسبه مشية النسناس الغريبة المترنحة، ولسنا نعرف هل نشأ عن عادة تسلق المنافذ الجبلية الصخرية؟ أضف إلى ذلك أن أصابع قدميه المشقوقة شقوقًا مستعرضة، وذلك الشعر الحريري الأبيض الذي يغطي ساقيه الناحليتين، كل ذلك أضفى عليه ذلك المنظر البشع العجيب.

وأضاف وانج قائلًا: "إن القرد الأبيض لا يطلب إلا البنات والشابات الصغيرات في شرخ شبابهن".

وجلس الجنرال هنالك بذقنه على صدره وهو يتنفس بصوت مسموع، قال: "وهل عثروا على النساء المخطوفات أو على أجسادهن؟ وهل اختطفت أطفالًا كذلك؟"

"كلا، إن الأمهات يصرخن: (القرد الأبيض) لإخافة الأطفال، وقد سمعنا أنه لا يمسك إلا الفتيات اللاتي بين الثامنة عشرة والثانية والعشرين"، وتردد الملازم وانج لحظة ثم قال: "وقلما يأخذ أيها الجنرال الزوجات ومعهن أبناؤهن، لا أستطيع أن أوضح معنى لهذا، ولكن هنا في هذا المكان قد نما تقليد غريب، وهو أن الأمهات في مأمن منه، وبعض الأمهات يقلن أنه كلف بالأطفال وحدهم!".

وأحس الجنرال بالمهانة والعجز، ولم يمكنه الاستيثاق هل ارتكب القرد الأبيض ذلك الفعل رغبة في الانتقام أو تهكمًا بالجنرال الصيني، وبجانب فقدانه زوجة التي أحب، شعر أن كرامته واسم الجيش الصيني كانا على حافة الهاوية.

لقد كان الجنرال يواجه عدوًا فذًا، وكانت مشكلة تصيبه مثل هذا الخاطف الفذ الذي كان له نشاط ومكر وتحمل فوق ما يملك البشر، لم يكن يستطيع تخطيط غارة عادية، وأرسل الجنود في مجال عشرة أميال أو عشرين ميلًا فوق الكتل الصخرية وتحت الخوانق؛ صيدًا لآثار زوجته وللبحث عن أي مفتاح ربما أدى إلى استردادها.

وبعد ذلك بأسبوعين تقريبًا قرر أحد رجالنا أنه عثر على حذاء امرأة أحمر مشغول، وجده على فرع شجرة على بعد ثلاثين ميلًا تقريبًا من المكان، وكان هناك يقين بأن المسز (أو يانج) لم يكن يمكنها أن تمشي على قدمها في الطريق، وأن الخاطفين قد حملوها حملًا، وجيء بالحذاء، وكان منكمشًا حائل اللون مبللًا بماء المطر، وقد أمكن الخادم والجنرال التعرف عليه. وكان الاحتمال السائد أنها على قيد الحياة، وأنها أخذت أسيرة، ولكن كيف السبيل إلى القرد الأبيض؟!

وقد شعرنا بالأسف البالغ حين اقتعد الجنرال وحيدًا بعد الظهر حتى المساء، وقد روى أحد أركان حربه أنه دفع بالطعام بعيدًا عنه عندما جيء له بالعشاء، ولم يجرؤ أحد أن يتكلم معه في ذلك اليوم.

وفي الصباح التالي دعاني الجنرال وكان ذلك في بواكير الصبح، وقبل تناول طعام الإفطار قال: "لاي، نحن خارجون اليوم لنبحث عن زوجتي، وقد قررت أن أرجئ الغزوة، فأجمع أربعة وعشرين رجلًا وأحضرهم إلى هنا، وأعد كل ما يلزم من مؤن وعتاد، فربما عسكرنا في العراء شهرًا، ومن يدري؟ ومن الطبيعي أحب أن يأتي معنا الجنرال وانج".

وفعلت كما أمر فالتقطت أربعة وعشرين رجلًا من الشباب، وكان بعضهم من أحسن الرماة في تلك الأرض، وكلهم مزودون بالرماح والمدى، ولم نكن نحتاج إلى المزيد من الزاد، كانت القناة عميقة وقد نما البرتقال المربريا في الجبال، وعرف رجالنا كيف ينقبون عن (التار) ويخبزونها في رماد نار مشتعلة في العراء، وإذ كنا مسلحين وممونين بهذه الدرجة لم يكن هناك شيء يخيفنا، فقد كان الجنرال نفسه سيافًا لا يبارى، يمكنه أن يشق بسهمه برتقالة على مبعدة مائة قدم.

وقد استمتعنا بالرحلة –في الحقيقة– مسافرين في تلك الأدغال، كان المنظر رائعًا، مررنا بجبال وغابات بكر وجنادل ومنطقة حافلة بالكروم الهائلة والخيزران المضمخ بالدموع، وقد نما الخيزران إلى ارتفاع مائه قدم، ولم يكن ثمة ما نخشاه من إنسان أو حيوان في الطريق، وقد عرف رجال القبائل الذين صادفناهم هناك من نحن، وكان هؤلاء القبليون –والحق يقال– أكرم الناس إذا ما تركوا ليعيشوا في سلام مع الصينيين، والواقع أنهم لم يفكروا أبدًا في أن يطعنوا رجلًا من الخلف إذا كانت المسألة مسألة انتقام، إلا أنهم يصيبون قوتهم بالصيد وزراعة الأرز ولا يبغون أي شجار مع الذين

يعاملونهم بالقسطاس، ولكن لم يكن من المأمول فيه الحصول على أيه بيانات منهم عن القرد الأبيض فكلهم لم يعرف، وقد ارتاب الجنرال في أن القرد الأبيض لم يكن يعيش مع هذه القبائل في أحسن علاقة فحسب، ولكن كان معدودًا عندهم بطلًا.

كنا متجهين قبل الجنوب الغربي إلى منطقة لم ينزل بها الجنرال من قبل، هنا انفتح النظر على قاع نهر جاف واسع، وانتهت الأحراش الغنية وكأنما كان ذلك بتقسيم دكتاتوري، وامتد أمامنا متسع التلال الصخرية المنحوتة لا يلطفها إلا نقط من الشجيرات التحتية الخشنة القصيرة، ودللت الصخور العظيمة على أن هذا المكان كان ذات مرة واديًا خصبًا يخترقه جدول جبلي، ثم تبدو الطبيعة وكأنها قد بدلت تفكيرها فوجهت مجرى النهر إلى مكان آخر، وارتفع على الأفق الغربي أعمدة صخرية هائلة لم تكد تقع على مثلها عينا بشر من قبل، وصح التحدث عنها كأعمدة، لأن هذه التلال المكونة من الأحجار الصخرية كانت قد نحتت بفعل المطر والرياح والبلل ملايين السنيين، حتى إنها اتخذت الآن شكل أبراج رأسية أو أعمدة، وقد خلقت بذلك هزات غريبة خطية فوق الأفق، وكانت قد اختفت كل آثار سكنى الإنسان، وألقت الشمس الغاربة خلف تلك الأعمدة الصخرية ظلالًا طويلة غريبة من اللوتس الأسود والأبيض بالتبادل بعرض الوادي المكشوف العريض، ومن العسير الحصول على ماء في هذا المكان القاحل يضاف إلى ذلك أننا قطعنا أكثر من مائة ميل من حيث بدأنا، وبدت الصحراء وكأنها تشير إلى النهاية الصحيحة لرحلتنا التي كانت مثمرة بقدر ما يهدف إليه غرضنا.

إلا أن الجنرال قد خلبته طبوغرافية المكان الغريبة؛ فبعرض قاع النهر انحدرت الأرض إلى علٍ، وعلى مبعدة ميلين أو ثلاثة أميال بدأت الحفرة في الظهور والتكثف مرة ثانية، وقليلًا نحو الجنوب الغربي كان خط التلال المهزوز قد توقف، وحل محله جدار صلب طويل مهيب لجبال يصعب اجتيازها، وقد اكتسبت تلالها الصخرية مجد أشعة الشمس وتلألأت في بريق ذهبي كمدينة غامضة قائمة على تل، وقد تطايرت مجموعة من طيور (مالك الحزين) عالية في السماء متوجهة ناحية الجبل، مدللة على أن مستقرها قد قام هناك.

ونشأت برأس الجنرال فكرة، وهي أن نتتبع النهر الجاف حتى منبعه ولا يزال الأمل يراوده، وأمرنا بأن نجد في المسير إلى الجبل، كان اليوم طويلًا، فإذا مشينا في ثبات دون توقف فلنكونن قادرين على الظفر بمكان نعسكر فيه بعد مغيب الشمس مباشرة، وبعد رحلة ساعة على الشاطئ المهجور والمملوء بالحصى المبري بالماء إلى حد الدقة بلغنا سفوح التلال المعشوشبة.

وصاح (لو) الذي كان شابًا لبيبًا في العشرين من عمره وكان أحد رجال أركان حرب الجنرال: "انظروا".

فرأينا كومة من الحجارة الملفوحة مجمعة سويًا ومن حولها رماد، لا شك أن أحدهم قد أقام معسكرًا به نار وطبخ، ووجد من حول ذلك بعض قشر البرتقال المجفف والموز، ولم نكن قد قابلنا بشرًا يومين كاملين، وكان

مرأى معسكر النار قد منحنا مرة أخرى شعورًا وثيقًا بوجود صلة بعالم البشر، ومضي (لي) الشاب يطوف بالمكان مختبرًا الأرض، وصاح مرة أخرى فجأة: "أنظروا"، فاندفعنا كلنا حوله لنرى، فأرانا (لي) قطعة من شريط أسود كالذي تستعمله السيدات في لم شعورهن وهن ترتدين ثيابهن.

قال (لو) الشاب: "لا بد أنه يخص المسز أويانج".

لو أننا صدقناه لأثلج صدورنا، ولكن لم يكن ثمة سبب للافتراض بأن شريط امرأة لا بد أن يكون بالضرورة ملكًا لزوجة الجنرال، ولم يعرف الجنرال طبعًا هل هو ملكها أم لا، ولم يزد على حملق في قطعة الشريط وتنهد. ولكنا كلنا مفكرون راغبون حين يكون البحث غير مجدٍ والمنتظر غير مأمول، وأصبح الجو ثقيلًا وكنا نود الاستمتاع كلنا بالعثور على ضحيتنا وأن نرى شيئًا من الإجراء، وعرفنا أننا كنا ذاهبين لملاقاة عدو خطر، لكن فوضى الصراع كانت أفضل من هذا المسير الضجر.

وعسكرنا تلك الليلة تحت سماء مقمرة، وكان التجوال في يوم حار من يوليه على قاع نهر تحرقه الشمس، مضنيًا حتى لقدماء المحاربين، وما لبثنا أن رحنا في سبات عميق.

وفي صبيحة اليوم التالي استأنفنا رحلتنا وكانت كلها تسلقًا، ولعلنا قد قطعنا ثلاثة آلاف قدم في ساعتين، ولم نجد إلا جدولًا صغيرًا يجري ويتوغل في قاع الأخدود، ثم اختفى مرة ثانية على سطح الأرض، وعكست الصخور البيضاء الهائلة تحتنا الحرارة الكثيفة وصعد عامود من البخار،

وكان منحدر يتقلقل خلال الأفنان، وكانت أوراق الكرم وهي بحجم راحة اليد تمتد في شتى المناحي، وهي تمون التموين الكافي، وقل الهواء إلى حد الندرة، وما لبثنا مرة أخرى أن صرنا على المرتفعات العليا.

ولما ارتقينا إلى القمة رأينا منظرًا مذهلًا، رأينا سدًا قد بني في سلسلة جبال تكونت من الصخور الكبيرة والأحجار الساقطة، أما كيف وبمعرفة من قد بني هذا فقد كان شيئًا يعز على الخيال؛ لأن الحجارة كانت من العظمة بحيث أنها لا يمكن نقلها بدون آلات مناسبة إلا بأيدي جنس من العمالقة فوق درجة البشر. وكان من الجلي أن هذا قد شيده أناس أحياء على الضفة الأخرى وذلك لتحريف المجرى، ذلك لأن تيارًا سريعًا وعميقًا أُجري إلى اليسار وانحدر في بركة عميقة من تحته، وقد شمخت لوحة في زاوية مدفونة إلى منتصفها في الأرض، تحمل المكتوب الغريب (مانس)، وأخبرنا جندي قادم من (المانس) أنها تعني (المكان العظيم الذي تحميه السماء العليا)، وباستثناء اللوحة المهجورة المطروحة أرضًا كنا بعيدين عن أي أثر لمساكن البشر كما كنا من قبل تمامًا.

وبعد شيء من الاستطلاع، ثبت لنا أن الجدول الجبلي السريع الذي يصب في الخالق الأخدود العميق قد أقام حائلًا لا يمكن اجتيازه بين المكان الذي وقفنا فيه والجانب الآخر، وقد أحاط بالجبل على بعد بضعة أميال، ولم يكن ثمة قنطرة خشبية أو جبلية يمكن أن نراها، أما الضفة المقابلة فقد تكونت من صخور كانت من الانحدار بحيث تصبح القنطرة غير ذات فائدة، وقد بدا كأن سكان الجبل قد بنوا في الماضي ذلك السد

ليحولوا تيار الماء؛ لغرض من أغراض الدفاع العسكري أكثر من بنائه لأغراض الزراعة، جاعلين من الجبل قلعة منيعة.

لم يكن هناك مدخل من ناحية الشمال، وتحولنا نحو اليمين سعيًا في الجدول، وكان نبات العليق سميكًا متكاثفًا متجمعًا بحيث تاهت معالم التيار، وعندما خرجنا رأينا حائطًا على علو خمسمائة قدم معدًا فوقنا كالبرج من الجرانيت الصلب، كالسور الطبيعي الهائل لمدينة مقامه على تل، وبطول صدع بين الصخور والحجارة أمكن رؤية درجات الحجر على مراحل منتهية مرة ثانية إلى ظلال الصخور، وعثرنا على المدخل دون أي استفسار بيد أن الوصول إليه كان من الصعوبة بحيث نظر بعضنا إلى بعض برهة قصيرة.

قال الجنرال أويانج: "حسنًا، هذا أبعث إلى الخيال! إن من المحال معرفة ما على العطف الآخر، إن إمكان الاهتداء إلى مدخل يوصل إلى تلك القلعة لهو فوق الطاقة العضلية، إننا كفء لأي كان، وذلك بقدر ما تعني الرماح والسهام، بيد أننا سنكون محاربين في قطر أعمى لا نجد فيه مخرجًا؛ فالناس الذين يعيشون هنالك لا يحبون الغرباء المقتحمين، عليكم أن تتيقنوا ذلك. بيد أنني لم أزل متشوقًا إلى استجلاء ما غمض، فإن كان القرد الأبيض هناك فلا بد لنا من اتخاذ إجراء عاجل، وإن لم يكن فلربما كانت القبيلة على وئام معنا. ما قولكم؟"

فكنا كلنا في جانب البحث عن مدخل.

لما بلغنا القمة تبين لنا أنها كانت مصيدة للموت، كان هناك مسافة مستوية عرضها ثلاثون قدمًا وممكن اختراقها بالرماح والسهام من علٍ، ولم يكن هناك غطاء سوى بضعة أقدام بين صخرتين، وانتهى إلى باب ثقيل مصنوع من بعض قطع الخشب الجامد، وهو مثبت بأمان من الجانب الآخر، لم نرَ من قبل قلعة كهذه أحسن بناء ولا أعظم غرابة في الخيال.

قرعنا الباب عبثًا، وعندما أنصتنا عن قرب، سمعنا أصواتًا وضحكات نساء وأطفال تأتي من بعيد، وقرعنا الباب وصحنا منادين. وبعد دقيقة ظهرت رأس فوق الصخور لتسأل من نحن، فرد الملازم وانج الذي كان يتكلم لهجتهم بأننا فريق من الصائدين نلتمس ممرًا إلى الجنوب، فاختفت الرأس، وما لبث أن انبعث من الداخل صوت عالٍ بادي القلق، فلما نظرنا إلى أعلى مرة ثانية صوب إلينا اثنا عشر سهمًا، فأكد لهم الجنرال مقاصدنا السلمية وتوسل إليهم أن يفتحوا الباب.

لقد كان موقفًا يائسًا، وعندما فُتِح الباب كان يانج أول من وقف بالممر، نظر حواليه وصوب عشرين سهمًا إلى المدخل، وكان أول صف من الرجال راكعًا والثاني واقفًا وألقى وانج نفسه، يقدم نفسه كهدف كامل وكان على مقربه منا خمسة أو ستة رجال معهم مداهم القصيرة وهي مسلولة، وقد وقفوا على كلا جانبي البوابة، وكانت كل رأس متطفلة من الممكن أن تشطر تمامًا في اللحظة التي تبرز فيها خارج مدخل الكهف، إنه في مثل هذا الموقف تصبح الأناة خير ضروب الإقدام، وتقدم وانج بابتسامة، وأطبق عليه الرجال من حملة السكاكين، وفي تلك اللحظة اندفع

الرجل الثاني والرجل الثالث خارجين من المدخل، وقعقعت المدى وطارت السهام، وكان قد انبطح ثلاثة أو أربعة رجال على الأرض قبل ذلك بقليل.

وما لبث أن انبعث صوت أوقف العراك، فنظرنا إلى أعلى فرأينا القرد الأبيض واقفًا بالقرب منا فوق صخرة على ارتفاع يبلغ خمس عشرة قدمًا على وجه التقريب.

وتقدم الجنرال أويانج، وخطا القرد الأبيض لملاقاته.

فقال الجنرال أويانج: "هذا كله وليد غلطة، نحن في طريقنا إلى الجنوب، ونريد أن نطلب الإذن بالمرور"، وقدم نفسه.

فأجاب القرد الأبيض: "إنه لشرف عظيم لي، وإن أي رئيس لا يسعه إلا أن يبدي التوقير لسلطة الجنرال"، بيد أن القرد الأبيض كان معقوصًا إلى أعلى، وكان كجميع رجال القبائل عاري القدمين، وبرغم حاجبيه الأبيضين المرعبين كانت عليه سيما من الهدوء والجلال، قال: "حيث إنك ضيفي، فإني أطلب إليك أن تأمر رجالك بأن يلقوا أسلحتهم، أما أنا فكما ترى غير مسلح"، قال ذلك ثم بعث بضحكة عريضة مجلجلة، وقال القرد الأبيض: "نحن أصدقاء وأنتم لم تشاهدوا بلادي قبل الآن، ولسوف تستمعون عندما تشاهدونها".

وأمرنا الجنرال أن نتجرد من السلاح، فلما آنس القرد الأبيض منا ذلك، فرح فرحًا عظيمًا وبانت عليه السماحة، وسوعد المصابون في النهوض على أقدامهم.

إن من العسر وصف ما خالجني من شعور وأنا أتفرج على ذلك القطر، ولاحت هضبة عريضة يحف بها من كل نواحيها قمم طويلة ويظللها أشجار البرتقال والنخيل القزم، وقد انتشر عليها بقع من شجيرات الأرز، وقد بدت كأنها مملكة مسحورة، وكان الهواء مضمخًا بالعطر ومبهجًا، على النقيض من الحرارة العالية التي بخارج المكان، وكان ثمة شيء ما في ضوء الوادي الذي غمره ضياء الشمس، والألوان الزاهية للزهور والفاكهة والأوراق التي ولدت شعورًا من الجذل، وكأننا قد حملنا فجأة إلى عالم آخر، فهنا وهناك قامت كتل هشة من الخشب تغطيها الأوراق الجافة، وقد ارتفعت أرضها بضع أقدام عن الأرض، وقد انبثت نسوة وأطفال نصف عارين يلعبون هنا وهناك، ويضحكون في ضياء الشمس، وكانت ببغاوات الباراكيت في لونها الأبيض الثلجي والطيور التي تطير من شجرة إلى شجرة، وكان من المحال في الغالب الظن بوجود مثل هذه الأرض الساحرة.

قال الجنرال ملاحظًا في أدب وإخلاص: "ألا ما أجمل هذه البلاد التي أنت فيها صاحبها! وإنها تدعوني إلى أن أغبطك".

فسرعان ما ضحك القرد الأبيض وهو يقول: "ومنبعة جدًا".

عاش القرد الأبيض في مقصورة مبنية بكتل خشبية ثقيلة، وكانت الأرض مغطاة بالكتل الخشنة، ولم يكن يوجد أي أثاث إلا من بضع كتل تستخدم كمقاعد، وإلا من لوحة كبيرة من خشب الساج تدعمها فواصل من الجذوع استخدمت كمائدة وحيدة في الدار، وجاء حشد كبير من المستغربين السعداء ليروا الزوار، استطعنا أن نرى من بينهم بعض النسوة الصينيات، وكان ذلك عند الظهيرة وقدم لنا الأرز، وصفحة من الحساء الفواح أريجه، وقد بدت كأنها يخنة تتكون من الخضروات والبهار وحشايا الخنزير وقد التقت جميعها.

كان للقرد الأبيض زوجات كثيرات (مينيانج)، ولم تكن النسوة محجبات كما هي الحال في المجتمع الصيني، أما الجنرال فلم يذكر شيئًا عن قرينته المفقودة، بيد أنني استطعت أن أرى أنه كان حزينًا وهو يتكلم ويمازح مضيفه في أثناء تناول الطعام، واقترح القرد الأبيض أن يصطحب الجنرال ليشاهد تلك البلاد بعد أن يفرغوا من الطعام.

ربما أراد القرد الأبيض أن يطلع ضيوفه أو أسراه (لسنا نجزم باصطلاح هنا) كم تكون كل محاولة للهرب مستحيلة، مشى هذا المخلوق الغريب بخطوات سريعة مرحة برغم وزنه البالغ مائتي رطل ونيف، وبدا مرآه المفرط الثقل وساقاه النحيفتان نسبيًا مهيأة مكيفة على وجه الخصوص، ألوان وضوء الوادي حاجبيه على بشرته النحاسية أقل فظاعة –بطريقة ما– مما تخيلت، ونطقت الخطوط العميقة حول فمه وخديه، وذراعاه المفتولتان وظهره وكتفاه العظيمتان الضخامة، نطقت كلها بقوة العضلات

والشجاعة، كان مزهوًا وكان سعيدًا، ولاح وكأن لم يَدِن لأحد بأي شيء، يقينًا كأن لم يخطف زوجة ضيفه.

سار الرئيس والجنرال متبوعين بوانج وأنا وقلة من الآخرين، ولمح الجنرال امرأة صينية تناهز الثلاثين واقفة ببابها ومعها طفل، فأشار إلى ضيفه وقال: "إنها صينية على ما أظن".

"نعم، هنا عدد منهن، إنك لتحب الجميلات من النساء، أليس كذلك؟" وجه إليه القرد الأبيض هذا السؤال عفو الخاطر.

ونظرت إلينا المرأة دون أن تنبس، ثم مضينا لحال سبيلنا، وقال الرئيس في غير التفات تقريبًا وهو يتتبع أفكاره هو: "أنت ترى، لا شيء يجعل رجالي أسعد من أن يحوزوا أجمل النساء زوجات لهم، وأنا أبغي السعادة لقومي، وقد ظفرنا بكل شيء في هذا البلد، بالسمك ولحم الصين والدجاج والأرز، ولست في حاجة إلى نقود ولست أجمع ضرائب من رعاياي، فإذا صادوا سمكة كبيرة أكلوا السمكة الكبيرة، وإذا صادوا سمكة صغيرة أكلوا السمكة الصغيرة، فإذا حلا لك أن تبقى معنا إلى الغداة فلسوف أريك أين نصطاد السمك، إننا إنما نفتقر إلى الملح والنساء والسكاكين بلا شك".

"وماذا تعني بقولك إنكم تفتقرون إلى النساء؟ إني أرى العديد منهن هنا"، واستطعت أن أرى الجنرال يتصدر المحادثة بعناية.

"إنهن غير كافيات، عندنا هنا ما يربو على الثلثمائة رجل وليس عندنا أكثر من مائتي امرأة إلا قليلًا، وأنت ترى أن هذه الهضبة الغنية يمكنها أن تطعم ألفًا آخرين على الأقل، وأنا أريد أن أرى هذه المملكة كلها (قال ذلك وهو يكسح بيده) غاصة بالناس الحسان الأقوياء، وليس عندنا نساء موفورات".

فقال الجنرال دهشًا: "وكيف كان ذلك؟!"

"هنا حوالي ثلثمائة امرأة عددت الطاعنات في السن، وأنا لست أفعل ذلك، والنساء بين الثامنة عشرة والخامسة والأربعين هن اللائي ينجبن البنين، والنساء الصينيات ولودات، وهنا واحدة جئت بها منذ عشر سنوات قد ولدت سبعة صبيان على التوالي، وكلهم جميل أيضًا، ولست أدري السبب في أن نساءنا ينجبن في العادة اثنين أو ثلاثة فقط؟ إني أفضل النساء من جنسكم".

"وماذا كنت تفعل بهن؟" واقتربت المحادثة.

"كلا، لم أزد عن أن آتي بهن إلى هذا المكان، ولو استطاع غيرنا أخذ نسائنا لفعلوا"، وسكت القرد الأبيض بضحكة ثم مضى يقول: "إن قومك مضحكون، وأنا أستميحك العذر في قولي هذا، لست أتصور كيف ترتبون الزيجات بين آباء وأمهات الصبي والصبية، أنا لا أتخذ عروسًا في داري ما لم أستطع حملها والمرور بها من فوق عتبتي".

"وأنت ترى أن طريقتك هذه هي الطريقة المثلى؟"

ونظر إليه القرد الأبيض في فضول وقال: "إن لنا الكثير من السلوى والانتعاش في هذه الطريقة، رأيت فتاة فأحببتها ثم تسأل أبويك أن يعدا العدة لأن تأتي في هدوء إلى دارك، والعروس لا تعمل عملًا في هذا الشأن، فأين الاستشارة هنا".

فاغتنم الجنرال لذلك، وظن أن لا جدوى من محاجة القرد الأبيض في (الاستشارة) في خطف الفتيات لاتخاذهن زوجات.

"وهل كنت تجيء بالنسوة الصينيات إلى هنا بالقوة؟ إن حكومتي لا توافق على ذلك كما تعلم"

فبعث القرد الأبيض بضحكة متضمنة أن موافقة أو عدم موافقة الحكومة الصينية لا تعنيه في شيء.

وصلنا إلى قمة تل صغير حيث ظفرنا بمرأى كامل للهضبة كلها، وأمكننا اختلاف ظل النبات على الضفتين المتقابلتين من أن نتتبع مجرى النهر الذي دار حولها قبل الجنوب والشرق حتى انتهى إلى صخرة، حيث بدأ الجبل الصخري الواقع في الغرب والشمال، فإذا كان قصد القرد الأبيض أن يؤثر فينا بقوة مركزه وبمناعة بلاده من أن يغزوها غازٍ فقد نجح نجاحًا بعيدًا.

في تلك الليلة أعد لنا الرئيس طعامًا كبيرًا من الدجاج اختتم بالسلاحف المائية، وقد أفاد الرئيس من المناسبة فتدرع بدرع من الصفيح فوقه رداء من جلد الفيل مطبوع باللون الأحمر، وأدار حول ذراعيه بعض القطع الأصغر حجمًا، وكان كل هذا على شكل عدة حربية وكانت كذلك في الحقيقة ولا تخترقها الأسلحة، ووقف ستة من رجال القبائل ومعهم رماحهم على طول الجدران، وكانت نساء القرد الأبيض يرحن ويجئن مقدمات الطعام على المائدة.

لم نجرؤ أن نسأل أهل القرية عن زوج الجنرال؛ مخافة أن يكتشف غرضنا من الرحلة، ولكن لابد أن القرد قد عرف السبب في ذهابنا إلى هناك، برغم أنه ظل أعظم المضيفين مودة، وكان الجنرال طيلة تناول الطعام مشغول العقل، وقد اعترف القرد الأبيض بقدر ما هو حقيقي بأنه قد خطفها.

وفجأة سمعنا صراخ امرأة بالداخل فعرف الجنرال صوت زوجته فوقف، وكانت قد رأت فرصة للخلاص في حين كانت النسوة الأخريات مشغولات ومرقت في طريقها إلى الغرفة، ولما رأت زوجها وقعت على كتفيه وبكت بحرقة، وظل القرد الأبيض ناظرًا على حين حاول الجنرال أن يهدئ من روعها.

قال الجنرال أويانج وهو يرتقب أسوأ ما يمكن أن يحدث، "هذه السيدة هي زوجتي".

"أوه كلا!" صاح القرد الأبيض في دهشة مصطنعة: "إن هذا يزيد الموقف صعوبة، أليس كذلك؟"

"أيها الرئيس، أنا ما جئت هنا إلا كصديق وسوف أرحل كصديق، وعيك أن تسمح لي بأن آخذ امرأتي معي عند عودتي".

"أنا لا أرد ما آخذه، إنها لي فكيف تأخذها اقتدارًا؟ أنا لا أعيد شيئًا، إنه من سوء الطالع".

وفجأة اكتسى وجه القرد الأبيض بمرأى مخيف لمن ينظر إليه، ثم جعل يده على حسامه.

"حراس!"، صرخ فاستل القبليون مداهم.

"إنني لضيفك"، قال الجنرال ذلك في ثبات، وهو ينظر إلى خصمه، وقد عرف أن رجال القبائل لهم قانون صارم في الكرم.

وترك القرد الأبيض يده تسقط إلى جانبه وتقدم من الجنرال وقال: "يؤسفنى ما حدث، لكنني أحكم في أرضي كما تحكمون في أرضكم، ولست ناصحك بمحاولة خطفها من هنا، ومهما يكن من شيء فأنت رامٍ ماهر أليس كذلك؟".

فأجاب الجنرال مزهوًا: "ربما".

"حسنًا إذن، سوف نحسم الأمر غدًا على ضوء الكرامة ووفقًا لتقاليدنا"، ثم دنا من المرأة وقال: "وحتى ذلك الوقت هي ملك لي".

وارتعدت المرأة فزعًا ولم تدر ماذا هو حال بها بعد، فقال لها الجنرال: "ربما تكون الحال من السوء كما تبدو، إني على ثقة أنني سأكون قادرًا على الترتيبات لأخذك إلى الدار، عودي"

وسمحت الزوجة للنسوة الأخريات بأن يأخذنها إلى داخل المكان، وكان الجو مشحونًا والمناقشة متعثرة، بيد أن القرد الأبيض بدا واثقًا، وعرفنا عادة السكان الأصليين، عادة خطف العرائس.

صاح: "أتيت بهؤلاء النسوة هنا لنفسي، فإذا لم تلد لي الواحدة منهن طفلًا بعد عام فإني أعطيها لواحد من رجالي، وأنت تعرف تقاليدنا أيها الجنرال".

ثم أوضح قائلا: "فبين هذه القبائل تختار الفتاة رجلًا في حفلة الرقص السنوية التقليدية، وتذهب معه إلى الجبل، وتعيش معه بعد ذلك، فإذا ولد لها طفل بعد عام ذهبت معه لترى أبويها، وبذلك تعتبر متزوجة وإلا فصم الزواج، وفي السنة التالية تختار رجلًا آخرًا في رقصة العام الجديد، ويستمر ذلك حتى تحمل وتصبح أما".

ثم أضاف القرد الأبيض: "وأنا أفعل الشيء نفسه، فإن لم تنجب لي المرأة، فإني أتركها ويعطى الفرصة رجل غيري".

وشهق الجنرال قليلًا ثم قال: "وماذا لو أن امرأة ما لم تنجب؟"

"قلما يحدث هذا، ومن جانب آخر يكون من الجرم فصل الأمهات عن أبنائهن، والأطفال هم السبب الحقيقي للزواج"، ثم اختتم حديثه بقوله: "كلهن سيصبحن أمهات، وكلهن سعيدات هنا".

وفي اليوم التالي أعلن عن (مسابقة عشاق) تسبقها رقصة خطوبة وكان القرد الأبيض قد أمر بها لتلك المناسبة الخاصة، يرتدي فيها الرجال والنساء والأطفال أحسن ثيابهم، فلما تنفس الصبح ترك الشبان والشابات –وهم سعداء بالرقص– عملهم وراحوا يتمشون في ثياب العطلة، وكانت رقصة الذوق تمتد عادة إلى الليل، حين يذهب العشاق في جماعات، والفتيات يتطلعن حولهن، ويبتسمن للشبان محاولات أن يخترن عشاقهن لتلك الليلة.

لم يبدأ الرقص إلا حوالي الساعة الرابعة، وظهر القرد الأبيض الآن مع زوجاته وإمائه –وكانت المسز أويانج بين الحاضرين مشدوهة تبدو عليها الحيرة– مرتديًا لباسه الحربي فخورًا بثوبه المصنوع من جلد الفيل، وكانت الخطوط العميقة على وجهه تبدو واضحة في ضياء الشمس، وقد علق على وسطه سيف برزت منه المقابض الملساء لمديتين، ربطت حولهما خيوط دقيقة من الفضة، لقد بدا في سعادته وزهوه كأنه ملك.

وبدأ الرقص بلا كلفة، ولم يكن مرتبًا أحسن ترتيب، ولعب قارعو الطبل على طبول من جلد الأفاعي جالسين حول صاري علم ارتفاعه

خمسون قدمًا وهو قائم في وسط الأرض، على حين نفخ رجلان في قرون كبيرة، وكانت الآلات تربة على خمسة أقدام طولًا وهي على شكل أبواق، وقد أحدثت نغمات طويلة خفيضة أمكن سماعها من بعد نصف ميل، في حين قرع الأرض برماحهم رجال أكبر سنًا، وشبكت الشابات أيديهن، ورقصن في دائرة حول العمود، وعصاباتهن الجميلة التزويق الخاصة بالزواج تهتز على جوانبهن، وكان لكل فتاة عصابة زواج صنعتها بأعظم عناية وكفاية، ونظرت إليهن أمهاتهن، والشبان وقوف حولهن يصيحون ويصفقون، فإذا صادفت هوى في نفس الشاب أخذ عصابتها واصطحبها، وكان هذا يحدث مصحوبًا بالكثير من الغزل وإلقاء النكات والضحك والغناء، وما لبث أن تكون أزواج وأزواج، والرجال يرقصون في الدائرة الخارجية، ممسكين بعصابات شريكاتهم الطويلة الحمراء.

وتفرجت مسز أويانج وهي مسحورة، وبدأ القلق يستحوذ على الجنرال، بيد أن القرد الأبيض كان يستمتع بالمشهد وهو يضحك ويشرب بعدم اكتراث، فعلى أسوأ تقدير لن يفقد إلا زوجة واحدة من زوجاته.

قال لضيفه: "حسنًا، أنا أعرف أنك قائد عظيم ولا أحب أن ألوح بمظهر الرجل الظالم، ولسوف نتبع عاداتنا التقليدية وستكون الغلبة للأصلح".

واستعار عصابة الزواج من إحدى زوجاته، وأوضح معنى المسابقة، وكانت هذه هي الطريقة المتبعة حين يطالب رجلان بالفتاة نفسها، كانت

العصابة أربع أو خمس بوصات عرضًا ومنقوش عليها صورة حية، وكان المقرر أن ترفع على رأس عمود، فأي الرجلين أطلق سهمه أقرب إلى عين الحية فله الفتاة.

ورفعت العصابة المشغولة إلى أعلى فرفرفت متكاسلة مع هبات الريح، ووقف جميع الرجال والنساء والأطفال حولها يرقبون في لهفة عظيمة، وقلما عقدت مثل هذه المسابقة بين العشاق.

وسأل القرد الأبيض: "ما اختيارك؟ أتقول مائة خطوة بعيدًا عن هنا؟"

وتردد الجنرال أويانج برهة لكنه قبل، وكان الهدف صغيرًا وكان يتحرك بلا نظام وإصابته كانت في حاجة إلى كثير من المهارة، وجيء إليه بأحسن الأقواس والسهام التي يملكها، ووقف الجميع بعيدًا وقرعت الطبول، وكان الجو مشحونًا بالقلق وأدركت المسز أويانج الآن أن حريتها إنما توقفت على براعة قرينها في إصابة الهدف، وكان من حقه ثلاث تسديدات.

كان الجنرال خبيرًا في الرماية وكان يصيب الطيور الطائرة على مسافات مترامية، لكن الطير الطائر من عادته الطيران في خط مستقيم، صوب ضربته إلى رأس الحية أقرب إلى العمود في جلجلة، لكنه فقدها تمامًا بتلوي العلم الصغير، واختفى سهمه في المسافة. قال القرد الأبيض مستدركًا، وكان على ما يظهر في أحسن حالاته المعنوية: "أنت لم ترقب الريح".

وبالتسديدة الثانية كان الجنرال أحسن حظًا؛ لأن السهم اخترق العصابة قريبًا من عنق الحية.

صاح القرد الأبيض: "أحسنت، يبقى لك طلقة"

وأخطأت الطلقة الثالثة الهدف تمامًا.

الآن تقدم القرد الأبيض خطوات إلى الأمام، وبعث بسهمه القوي في رنين، وكأنه لعبة، فرحًا بالفرصة السانحة بأن يباري بمهارته الجنرال الصيني، ووقف بغير حراك فلسوف يغادر سهمه الخيط في أية لحظة، وأبرز رأسه برهة، وفي ثانية عجلى إذ أدرك حركة الراية بعث بسهمه عبر رأس الحية بالضبط.

وانبعثت صيحة إعجاب مجلجلة من شعبه، وقرع الطابل الطبلة، وكأنه يريد تحطيمها، وجذبت العصابة إلى أسفل واختبرت، وكانت السهام قد علمت ولم يكن ثمة جدل يخاض، وغص الجنرال أويانج بريقه وانتحبت زوجته، لقد كانت مباراة عادلة وكان عليه أن يتقبل الحكم.

قال القرد الأبيض: "إني جد آسف، لكنك أجدت".

وبكت المسز أويانج بحرقة، وكان فراقًا حزينًا ذا مشقة، وعض الجنرال شفته وحاول إخفاء ما أحس به.

وتركت لنا الأسلحة خارج مدخل الكهف حتى نتناولها في طريق عودتنا، وصحبنا القرد الأبيض إلى الداخل، وأهدى الجنرال دفًا عريقة من النحاس الأحمر.

"لا حقد أيها الجنرال، في السنة القادمة إذا حلا لك أن تأتي وتزورني فإني رادها إليك".

في العالم التالي حدث شيء غريب، عاد الجنرال ليرى امرأته، فرأى أنها قد وضعت ذكرًا، ولدهشته كانت تتزيى بزي امرأة من السكان الأصليين، وكانت تهدهد –وهي سعيدة– الطفل في ذراعيها وهي تعرضه له بفخر، وكان الجنرال بسبيل فقدان صبره.

قال لها: "أظنني لم أزل قادرًا على إقناع الرئيس ليعيدك إلي"

بيد أن الزوجة ظلت ثابتة وقالت : "كلا، فلتذهب بدوني؛ فإني لا أستطيع أن أترك ابني هنا، فأنا أمه".

"أو تعنين أنك تؤثرين البقاء هنا؟ أتحبين الرئيس أم لا؟"

"لست أدري، لكنه أبو ولدي، فاذهب وحدك فإني سعيدة هنا".

فترنح الجنرال حين سمع كلمات زوجته، وقد أمضى وقتًا طويلًا قبل أن يتبين له أن أساليب القرد الأبيض لم تكن بمثل ما ظنه من بلاهة، لقد انتصر القرد الأبيض وعرف هو لماذا.

كانت هذه الإهانة الأخيرة ضربة هائلة له، وأصبح فيما بعد رجلًا مقضيًا عليه.

مذكرة من غريب

(لم يعلم مؤلفها)

كان الوقت قبيل الظهر، وكان الجو حارًا، ولم يكن بالشارع إلا عدد قليل من المارة، وكان مشرب الشاي الذي يديره (وانج أره) يقع وسط المطاعم، وكان المجتمعون في الصباح والذين غدوا إليه ليحتسوا فنجانًا من الشاي ويتبادلوا بعض الأخبار والعبارات قد انقضوا، وراح وانج أره يغسل أواني الشاي ثم يرتبها، وكانت أربعة وعشرين فنجانًا، على رف هناك.

حتى إذا تم له ذلك تناول البيبة وهو يستمتع بشيء من الراحة، حينذاك لمح رجلًا طويل القامة حسن الهندام يخطو داخلًا إلى حانوته، وقد أكسبه حاجباه الكثيفان وعيناه الغائرتان السوداوان مظهرًا ملفتًا للنظر.

ولم يكن وانج أره قد رأي هذا الرجل قط من قبل، لكن ذلك لم يثير دهشته في شيء؛ فقد وفد على حانوته كل الناس من كل لون، وهذا ما جعل من إدارة مشرب للشاي شيئًا مبهجًا للنفس، فقد توافد عليه أصحاب الأعمال وأسرهم، والعلماء والتجار والمقامرون والأفاقون وعابري السبيل، جاءوا جميعًا ينشدون الراحة والترويح عن النفس.

وتخير ذلك الغريب الطويل القامة مائدة بالداخل بعيدًا عن بقية الرواد، مما أوحي إلى الرائي أنه صاحب سر، وكان يبدو عليه شيء من الانفعال.

ولاحظ وانج أره أن ذلك الرجل منشغل البال، فرأى من الأوفق أن يتركه وحده.

وما لبث أن مر بالشارع صبي يركب دراجة، يرفع عقيرته وينادي: "هوتو.. هوتو.. هاي يو.. اللذيذ".

فناداه السيد، وما لبث الصبي –وكان حليق الرأس كالرهبان– أن وضع صينية على المائدة، وشرع بفرش بعض (الهوتو) في عصا يرش عليها الملح.

– تفضل يا سيدي.

– اتركها هناك.. ما اسمك؟

فقال الصبي وقد بدت على وجهه ابتسامه بريئة: "سانج أره هو اسمي، لأنني أشبه الراهب الصغير".

– وهلا تريد أن تصيب مالًا أكثر من ذلك، أيها الرويهب؟

فأجاب الصبي وقد لمعت عيناه: "بلا ريب".

– أريد أن أكلفك بمهمة خاصة بي.

وأشار الرجل الطويل القامة إلى إحدى الدور، وكانت تحمل رقم ٤ في زقاق يتفرع من ذلك الشارع في الجهة المقابلة لمشرب الشاي، وسأله: "أتعرف من الذي يسكن في هذا البيت؟".

- تلك دار السيد هوانجقو، وهو ضابط من ضباط القصر، إنه أمين الملابس الرسمية.

- أهو كذلك؟ أتعرف كم من الأشخاص يعيشون في تلك الدار؟

- ثلاثة لا يزيدون: ضابط القصر، وزوجته الشابة، وفتاة صغيرة متبناة.

- حسن، أتعرف تلك السيدة؟

- قلما تبرح دارها، إلا أنها كثيرًا ما تبتاع مني الهوتو، نعم أعرفها، ففيم سؤالك؟

ورأى ذلك الغريب أن سانج أره لم يكن ملتفتًا إليه، ولذلك أخرج محفظته وصب حوالي خمسين قطعة من النقود على صينية الصبي.

ولمعت عينا الصبي وقال الرجل للصبي: "هذا لك".

ثم أخرج للصبي لفافة احتوت على سوارين سميكين من الذهب، ومشبكي شعر قصيرين، ومذكرة، وقال له: أعط السيدة هذه الأشياء الثلاثة، كن حذرًا! إذا ما رأيت الزوج لا تعطها هذه الأشياء، هذا واضح؟

- سأعطي السيدة هذه الأشياء، ولن أعطيها لضابط القصر.

- حسنًا.

- وبعد أن تعطي السيدة المذكرة، انتظر جوابًا منها، فإن لم تأتِ معك فأخبرني ماذا تقول.

ومضى الصبي إلى الدار، لكنه ما إن رفع الستار وتطلع إلى الداخل حتى شاهد ضابط القصر متخذًا مجلسه في الغرفة الأمامية، ونظره مصوب إلى الباب مباشرة، وكان هوانجقو رجلًا قصير القامة في نهاية عقده الرابع، له منكبان عريضان ووجه واسع مسطح، غلب عليه الطول، وكان يقوم بنوبته في القصر طيلة الثلاثة أشهر الماضية، ولم يحضر إلى داره إلا منذ يومين اثنين.

صاح الضابط في وجه الغلام: "ماذا تفعل هنا؟" ثم راح يجري وراء الصبي الذي انطلق يعود لتوه، ولكن هوانجقو جذبه من كتفه وهزه بعنف وهو يقول: "وماذا تقصد باختلاس النظر في مسكني ثم تعدو هاربًا على هذا النحو؟"

– أمرني أحد السادة أن أسلم زوجتك لفافة، وطلب إلي ألا أسلمك إياها.

– وماذا بها؟

– لست مخبرك وقد أمرني السيد ألا أعطيها إياك.

لكن الضابط لكم الصبي على رأسه، فانتفض الصبي فزعًا ودار في مكانه.

ثم صاح بالصبي في صوت أجش، صوت ضابط: "أعطني إياها!" فلم يسع الصبي إلا أن يطيع ما أمره به وهو يقول: إنها ليست لك، بل لها".

أما هوانجقو فقد فض اللفافة، ورأى السوارين وزوج المشابك، والمذكرة التي كانت تقول:

"السيد العزيزة هوانجقو:

لعلك ترين في هذا تطاولًا مني، لكنني منذ رأيتك في المطعم لم أستطع أن أبعدك عن خيالي! إني لأحب أن أزورك، لكن هذا الحمار زوجك قد عاد، أتوسل إليك أن ألقاك وحدك! تعالي مع حامل هذه الرسالة، أو أخبريني كيف ألقاك. وإني لباعث إليك بهذه الأشياء المتواضعة آية على تقديري العظيم".

المعجب بك

أما الضابط فقد كز على أسنانه، وسأل في برود وهو يرفع حاجبيه: "من الذي سلمك هذه الرسالة؟".

فأشار سينج إلى حانوت وانج أره الواقع أمام الزقاق، وقال: رجل له حاجبان كثيفان وعينان شديدتا الاتساع، وأنف أفطس وفم عريض، وجذب هوانجقو الصبي من ذراعه وجره إلى الحانوت فلم يجد الغريب، وبرغم احتجاجات وانج أره أخذ الضابط الصبي وعاد به إلى داره.

وكان هوانجقو يرتعد غضبًا، ونادى زوجته بصوت الآمر أن تخرج إليه، وكانت الزوجة الشابة امرأة رقيقة على جانب كبير من الجمال، تناهز الرابعة والعشرين، لها وجه صغير تبدو عليه مخايل الذكاء.

رأت زوجها ممتقع اللون مضطرب التنفس، ولم تدرك شيئًا من كل ما حدث.

قال لها وقد اربد وجهه: "انظري إلى هذه!"

أما المسز هوانجقو فقد بدأت تجلس متباطئة على أحد الكراسي، وتناولت الأشياء وراحت تتفحصها.

"اقرئي المذكرة"

فقرأتها وهزت رأسها ببطء وقالت: "أهذا الخطاب لي؟ لابد أن هناك غلطة، من الذي أرسله؟".

"أنى لي أن أعرف من الذي أرسلها؟ أنتِ التي تعرفين، من هذا الذي كنت تتناولين معه الطعام طيلة الثلاثة أشهر التي كنتُ فيها غائبًا في المناوبة؟"

فأجابت الزوجة الشابة في رقة: "إنك تعرفني حق المعرفة، لست أنا التي تفعل مثل هذا، لقد مضى على زواجنا سبع سنوات، فهل فعلت في يوم من الأيام ما لا يليق بزوجة أن تفعله؟"

"إذن من أين جاءت تلك المذكرة؟"

"ومن أين لي أن أعلم؟"

ولما عجزت الزوجة عن تفسير ذلك الخطاب بدأت تبكي وتقول مولولة: "أية داهية تلك التي نزلت بنا من سماء زرقاء صافية؟"

أما زوجها فقد لكمها لكمة على وجهها دون سابق إنذار، فصرخت المسز هوانجقو صراخًا عاليًا وراحت تهرول داخله إلى الدار.

ونادي ضابط القصر الفتاه ذات الثلاثة عشر ربيعًا، واسمها (بينج) وكانت ابنته في الرضاع، فجاءت وقد كشف ردناها القصيران عن ذراعيها الممتلئتين الحمراوين من أثر الغسيل، ووقفت منتصبة تنتظر أمرًا منه وهي ترتعش قليلًا على عادتها أمام سيدها، وراحت ترقب حركاته في فزع فنزع الرجل قطعة من الخيزران كانت معلقة على جدار وألقى بها على الأرض، ثم أخذ حبلًا فربط يدي الخادم، ثم مد يده فجذب الفتاة بقوة وسألها وهو يمسك بالخيزرانة في يده: "أخبريني من ذلك الذي كانت السيدة تتناول معه الطعام وأنا غائب؟"

أما هوانجقو فشرع يضرب الفتاة بالخيزرانة، وكانت زوجته داخل الدار ترتعد كلما طرق مسمعيها صوت الصرخات، واستمر الضرب والاستجواب بعض الوقت، فلما لم تستطع الفتاة احتمالًا قالت آخر الأمر: "عندما كنت متغيبًا عن الدار كانت أمي تنام في كل ليلة مع شخص ما".

فقال السيد: "حسنًا" ثم أنزلها وحل وثاقها.

"والآن أخبريني من هو ذلك الشخص الذي كان ينام مع أمك كل ليلة في أثناء غيابي عن الدار؟".

وجففت الفتاة دموعها، وقالت وبصوتها كراهية له: "كانت كل ليلة تنام معي!".

"لسوف أصل إلى خبايا الموضوع"

قال هذا مقسمًا ثم غادر الدار بعد أن أحكم رتاج الباب وراءه.

ونظرت الزوجة وربيبتها كل إلى الأخرى، ورأت المسز هوانجقو الكدمات بذراعي الفتاة وظهرها، ثم هرعت تتغسل الجراح وهي تتمتم "هذا الحيوان!"

واقشعر بدن الزوجة لمرأى الدم الذي قد احمر به طست الماء، وعادت تتمتم: "الحيوان الوحش!".

ووقفت الفتاة تنظر إلى ربيبتها الحنون، وقالت: "لولاك لعدت إلى القرية، وإنه ليجب عليكِ ذلك أنت أيضًا يا أماه"

"صه، يجب ألا تقولي هذا!".

وبدت المسز هوانجقو وكأن برأسها دوارًا، لا تستطيع أن تدرك ماذا كان يجري، وأخيرًا استدارت إلى الصبي الذي تكور في ركن من أركان الغرفة وسألته: "ما شكل ذلك الغريب؟".

فأعاد الصبي الوصف وأخبرها بالقصة، وجلست الزوجة وربيبتها في صمت وهما مشدوهتان.

ولم يمضِ غير نصف ساعة حتي عاد الزوج ومعه أربعة ضباط، وبعد أن سحل بالع الهوتو قال للرجال: "خذوا اسمه"، ففعل الرجال كما أمروا مدفوعين بالاحترام الواجب لهوانجقو، باعتباره ضابطًا من ضباط القصر.

"لا تخرجوا الآن فهناك أشخاص آخرون بالدار"، ثم نادى زوجته والخادمة وأمر بالقبض على الثلاثة جميعًا.

"وكيف نجرؤ على اعتقال السيدة؟"

"لتفعلوا ذلك، فهناك جريمة قتل"

وأفزعت كلماته الرجال الأربع فقيدوا الأسماء، وشيعوا السجناء إلى خارج الدار، وكان الجيران قد احتشدوا بالخارج، أما المسز هوانجقو فقد اقشعر بدنها وهي تخطو خارجة من خلف ستار الباب وقالت لزوجها: (كوكو) ما ظننت –في حياتي– أنني سأرى مثل هذا اليوم، وكان خليقًا بك أن تثوب إلى رشدك أو تتريث أكثر من ذلك، حتى تعرف من الذي بعث الخطاب، إنه لعار أي عار!".

وكان الضباط قد أودعوها خارج الباب، وأفسح لها الجيران الطريق لتمضي.

فأجابها بعلها: "لو كنت تخافين العار ما فعلت فعلتك هذه".

فقالت له الزوجة: "ولماذا لا تسأل جيراننا الأقربين؟ هل قد دخل دارنا رجل في أثناء غيابك أم لا؟ بئست التهمة التي رميتني بها!".

فأجابها الرجل في غضب: "ولسوف أفعل".

أما الجيران الذين لم يعرفوا ما الذي اتهم الرجل به زوجته، فقد كانوا مشدوهين، رثوا لحال الزوجة وهزوا رءوسهم بالنفي ردًا على سؤال الزوج.

وذهب هوانجقو مع المتهمين ليوجه اتهاماته أمام المأمور (تشيين آل كانفنج)،كان تشيين رجلًا ذا وجه مستدير ممتلئ، وبدا كأنه رجل لا ينفذ صبره، ولا شيء يستطيع أن يقلقه، وسلم الزوج الخطاب والهدايا وأقام الدعوى الرسمية، وأمر المأمور بأن يبقي السجناء في الحجر طوال التحقيق.

وكان ضابطا السجن (شان تينج) و(شان تشيينشنج) هما المنوط بهما استجواب السجناء، فبدءا بالزوجة.

فقررت المسز هوانجقو أنها ولدت في قرية قريبة من المدينة، وأنها فقدت أمها في بواكير حياتها، وعندما كانت في السابعة عشرة من عمرها فقدت أباها، وليس لها أقارب، وقد تزوجت من زوجها في السنة التالية، ثم قضيا سبع سنوات من السعادة الزوجية، ولم يحدث أن قدم إلى دارها أقارب أو زائرون في أثناء غياب زوجها، ولم تتناول طعامًا مع أحد في أي

مكان –لا في الدار ولا في المطعم– غير زوجها، وليس لديها أية فكرة عن شخصية ذلك الشخص الذي بعث بالمذكرة.

"ولماذا لا تستقبلين أقاربك؟ ألا يأتون لزيارتك؟"

"زوجي لا يستريح إلى هذا، فقد جاء لزيارتي ذات يوم ابن عم لي هو تشانج أره ليسأل زوجي عن وظيفة، ولكنه لم يظفر بوظيفة ما؛ لأن ذلك لم يكن من السهل عمله، وبعد ذلك أمرني زوجي أن أمتنع عن مقابلة الأقارب ففعلت".

– وهل تفعلين كل ما يأمرك به زوجك؟

– نعم أفعل.

– وهل من مألوف عادتك الذهاب إلى المسرح حيث يراك الناس؟

– لا.

– ولماذا؟

– هو لا يأخذني.

– وأنت لا تذهبين وحدك؟

– كلا.

– وهل تذهبان لتناول الطعام في المطاعم؟

– نادرًا جدا ما نفعل ذلك، فأنا سعيدة في منزلي، منذ بضعة أيام عاد من القصر ولم يسغ له طعامي، فاصطحبني إلى أحد المطاعم المجاورة.

– وأكلتما سويًا؟

– أجل.

ونودي جيران المرأة، فدخلوا وأيدوا قصة المرأة على وجه العموم، ولم يكونوا قد رأوا أي زائر بدارها، ولم يشاهدوها قط تخرج إلا برفقة زوجها، إنها لامرأة حبيسة بيتها، وكان رأي الجيران فيها رأيا طيبًا على الأرجح، ودعوها بـ(السيدة الصغيرة)؛ لأنها كانت ضئيلة جدًا، برغم عدم وجود سيدة عجوز بالدار، وشهدت جارة بأن الزوج رجل ذو طبع حاد وأنه يسيء معاملة زوجته التي أعربت دائمًا عن حلم وطاعة، ولم تجارِ بالشكوى قط، وقالت الجارة أن المسز هوانجقو بدت وكأنها الطير يطعم من يد الإنسان.

وفي اليوم الثالث كان شان تشيينشنج يقف قدام مكتب المأمور، وقد شغل باله بهذا السر إذ لمح الزوج مارًا به، وقدم عليه هوانجقو وألقى عليه التحية.

وسأل الزوج: "إلى أي مدى وصل التحقيق؟ لقد انقضت ثلاثة أيام وربما تسلمت هدية من مرسل المذكرة؛ ولذلك أخرت سير القضية عامدًا".

"يا للبلاهة! إن القضية ليست بمثل هذه البساطة، إن زوجتك تصر على براءتها، ولم يصل إلينا شيء يبرهن على عكس ذلك، ولماذا لم تكن أنت الذي أرسلت تلك المذكرة لحاجة في نفسك؟"

فأجابه هوانجقو في غضب: "لا تخاطبني على هذا النحو، فلقد كنا سعيدين في زواجنا".

فسأله شان: "وماذا تقترح علينا أن نفعل؟".

"إن لم تستطع المحكمة إيضاح الحقيقة فإنني سأطلب الطلاق".

فمضى شان إلى مكتبه وأعد الوثائق، وبعد الظهر قدم تقريره إلى المأمور، الذي أمر تشيين بأن يرسل في طلب الشخصين والشهود للمحاكمة في اليوم التالي.

وبدأ المأمور بالصبي الصغير فاستجوبه، ثم ثنى بالخادمة ذات الثلاثة عشر ربيعًا باعتبارها أهم الشهود، ثم أهوى بقادوم حديدي خفيف كالورق فوقها ليخفيها، وتوجه إليها مخاطبًا في صوت أجش غليظ.

– تعرفين كل ما يحدث في الدار، أليس كذلك؟

– أجل.

– هل شاهدت أي زائر أو زائرة عندما كان سيدك خارج الدار؟

فأجابت الفتاة نافذة الصبر: "إذا كان ثمة زائر فهل كنت لا أراه؟"

وطرق المأمور المنضدة طرقة عالية أخرى بمطرقته، ثم صرخ: "يا لك من كذابة صغيرة تجرئين على الكذب في محضري! سوف أرسلك إلى السجن جزاء لك".

ففزعت الفتاة لكنها قالت في ثبات: "يا صاحب الرفعة أنا ما كذبت قط، لقد مكثت سيدتي في الدار طيلة تلك الفترة، وليس مثلك من يقذف المحصنات."

ثم انهارت وهي تغمغم وانتابها التشنج.

أما المأمور فقد تأثر بشهادة الخادمة.

ثم توجه إلى الزوج فقال: "الآن إذن، يجب أن يقوم الدليل على جريمة السرقة بوجود البضاعة المسروقة في مكان اللص، كما يجب أن يقوم الدليل على جريمة الزنا، أنا لا أستطيع أن أدين زوجتك بغير برهان آخر، لا يكفي خطاب من غريب مجهول، ولا بد أن لك عدوًا قد حاك هذه المذكرة". ثم نظر إلى السيدة ومضى يقول: "لابد أن أحد الأشخاص يريد أن يخلق المتاعب، عليك الذهاب بها إلى الدار، حاولي أن تعرفي من الذي بعث بالمذكرة".

أما الزوج فقد وقف جامدًا كالحجر، ثم قال: "إزاء هذه الظروف لا أقبل يا صاحب الرفعة أن أعود بها إلى الدار".

فحذره المأمور قائلًا: "ربما كنت مخطئًا".

فقال هوانجقو، ولم يستنكف من أن ينظر إلى زوجته شزرًا: "لن أستريح حتى تمنحني الطلاق".

وبعد مزيد من الاستجوابات قال المأمور للمرأة: "زوجك يصر على الطلاق، وأنا أكره أن أفصم عرى الزواج، فماذا تقولين؟"

"أنا نقية السريرة، أما وقد أراد الطلاق فلا مانع لدي ولن أحتج".

وقضى بالطلاق بناء على رغبة الزوج، وأطلق سراح الصبي والخادمة، وأمر بأن يحملا إلى أبويهما.

أما الزوجة فقد انهارت أعصابها انهيارًا تامًا عندما أرجئ اجتماع المحكمة، كان الطلاق فضيحة أية فضيحة بالنسبة للمرأة، لم تكن تتوقعه لأن ذنبها لم يقم على أساس.

واتجهت الزوجة إلى زوجها وقالت: "ما كنت أعتقد أنك سوف تكون بهذه القساوة، بعد سبع سنوات من الزواج، وإنك لتعلم أن ليس لي هناك مكان أذهب إليه الآن، إني أفضل أن أقضي نحبي على أن يكلل اسمي بالعار".

فأجابها هوانجقو: "هذا ليس من شأني"، وما لبث أن أولادها ظهره، ولم يقف بجانبها سوى الفتاة ينج أره.

نادت الزوجة: "ينج أره، أشكر لكِ حسن صنيعك، أما الآن فلم يعد ثمة فائدة، تستطيعين أن تعودي إلى أبويك، أما أنا فليس لي مكان أذهب إليه، ولا أستطيع أن أبقي عليك، فاذهبي إلى دارك، نعمت الفتاة الطيبة أنت!".

ثم افترقتا في دموع.

وتركت المرأة وحيدة لنفسها، لم تكن تعي تمامًا ما كان يحدث، راحت تجوب الشوارع المزدحمة بغير هدى، دون أن ترى شيئًا، وكانت الظلمة تلقي بجيرانها على المكان، ومضت في تجوالها حتى بلغت قنطرة (تينيهان) الواقعة على نهر (باين) حيث وقفت تتطلع إلى حركة الماء المتلاطم، وكانت صواري القوارب شاخصة متقاربًا بعضها من بعض وهي تهتز وتتأرجح، وراحت ترقب قرص الشمس الذهبي يختفي رويدًا رويدًا وراء أحد التلول على بعد، فأدركت أنها قد وصلت النهاية وأنها لن تشاهد الشمس مرة ثانية.

وإنها لتهم بالوثوب إلى النهر، إذ بشخص يجذبها إلى الوراء، فالتفتت فرأت امرأة عجوزًا قد ربت على الخمسين، ترتدي ملابس سوداء، يشتعل رأسها بياضًا.

"يا بنيتي، لأي شيء تقطفين زهرة حياتك على هذا النحو؟"

فحملقت المسز هوانجقو في وجهها طويلًا.

قالت العجوز: "هل تعرفينني؟ لا أخالك تعرفيني".

فأجابت المرأة الشابة بالنفي.

"أنا خالتك المسكينة، ومنذ تزوجت بضابط القصر لم أجرؤ على زيارتك خوفًا من إزعاجك، لم أركِ منذ عهد طويل منذ كنت طفلة، وقد سمعت من بعض الجيران يومًا أن بينك وبين زوجتك قضية، كنت آتي كل يوم أستطلع الأخبار من بعيد، وسمعت أخيرًا أن المأمور قد أصر قرارًا بالطلاق، ولكن فيم الوثوب إلى النهر؟".

"زوجي لا يريدني، وليس لي مكان أذهب إليه، فلماذا أعيش؟".

"مهلا مهلًا، تستطيعين أن تعيشي مع خالتك العجوز"، قالت السيدة العجوز ذلك وكان صوتها أكثر عنفوانًا بالنسبة لعمرها، ثم قالت: "شابة مثلك تحاول أن تضع نهاية لحياتها! أية بلاهة هذه!"

لم تكن المسز هوانجقو على تمام اليقين، هل كانت تلك المرأة العجوز خالتها حقيقة أم لا، لكنها سمحت للمرأة بأن تصطحبها معها بلا إرادة تقريبًا.

وذهبتا إلى حانة حيث أمرت العجوز لها بكأس من شراب، ولما ذهبت الشابة إلى الدار وجدتها تقع في زقاق هادئ بعيد عن الطريق العام.

وكان منظر الدار لا بأس به، وكانت مؤثثة بالستائر الخضراء والمساند والموائد.

"أي خالتي، هل تعيشين وحدك؟ وكيف تعولين نفسك؟"

فأجابت العجوز: "أنا أحصل على معاشي بطريقة أو بأخرى، لقد تعودت من قبل أن أناديك بـ(الآنسة)، لقد نسيت اسمك".

فأجابتها المسز هوانجقو: "تشانماي"، ولم تزد الأخرى شيئًا على هذا السؤال.

وكانت المرأة العجوز شديدة الحفاوة بها، واستقبلتها في الأيام الأولى بكل ما يستقبل به الضيفان من الراحة، ورقدت (تشانمان) في فراشها وراحت تتأمل هذا التغير الغريب الذي طرأ على حياتها.

وبعد انقضاء بضعة أيام قالت لها السيدة العجوز: "يجب أن تتحلي بالقوة، أنا لست خالتك حقيقة، لكنني أردت أن أنقذ حياة فتاة صغيرة عندما رأيتك تهمين بإلقاء نفسك في الماء، إنك لصغيرة وجميلة، وحياتك أمامك".

وضاقت عيناها الكبيرتان ومضت تقول: "ألازلت تحبين زوجك الذي خلعك على هذه الصورة الوحشية وتركك لتقضي نحبك؟"

فرفعت تشانماي رأسها عن الوسادة وأجابت: "لا أعرف!".

قالت المرأة: "أنا لست ألومك ولكن تذكري يا بنيتي أنك لا تزالين شابة، ولا ينبغي أن تتركي نفسك للناس تتقاذفك، فاجعلي زوجك دبر أذنك، واغلبي تعاستك! وإن للشبيبة أحيانًا بعض العواطف البلهاء على حد علمي، لقد عبرت من القناطر أكثر مما عبرت أنت من شوارع، وإنها لسنة الحياة، يوم لك ويوم عليك، يوم بأعلى ويوم بأسفل، وإنها لتسير في دوائر وهكذا دوالَيك، لقد فقدت زوجي وأنا في الثامنة والعشرين،كم عمرك الآن؟!"

فأخبرتها تشانماي بعمرها، "حسنًا، كنت أكبر من سنك الحالية ببضع سنوات لكنني ها هنا، ها انظري إلي". وكانت برغم تجاعيد وجهها وترهل جلد رقبتها قليلًا إلا أنها بدت في أكمل صحة.

"تأخذين قسطًا وافيًا من الراحة ولن يمضي إلا بعض الوقت حتي تتغلبي على متاعبك. إن الحياة أشبه بالسير في طريق، فلا يلبث المرء أن يقع، وماذا بعد؟ هل تجلسين فتبكين وتأبين أن تنهضي؟ كلا! لقد عرفت مما قلته لي أنه نذل. هو لم يتخلَ عنك لكنه رماك، ففيم إذن رقادك هكذا واستسلامك للفكر المضني؟".

وأنصتت تشانماي لكلامها وقد أحست بالارتياح، قالت: "ماذا يسعني أن أفعل؟ أنا لا يمكنني أن أعيش معك مدى الحياة".

"لا تشغلي بالك، استريحي واستعيدي قوتك، حتى إذا عادت إليك حالتك الطبيعية فابحثي لك عن رجل وتزوجي ثانية، لن يجوع أبدًا من له عينان كعينيك الجميلتين، ومحيا جميل كمحياك".

"أشكرك يا خالتي، لقد شعرت الآن بتحسن".

لم يسع المسز هوانجقو إلا أن تعترف بالجميل للمرأة العجوز؛ لإنقاذ حياتها ومساعدتها على استعادة روحها المعنوية خلال هذه الفترة الحرجة من حياتها.

وكانتا تتعشيان معًا كل ليلة، وكانت السيدة العجوز (هو) تؤثر دائمًا أن تتناول شيئًا من نبيذ الأرز مع عشائها، وكان النبيذ لاستعادة الثقة بالحياة: "إنه في عمري ذلك المتقدم يشعرني بالصحة، وبأن شبابي قد رد إلى مرة ثانية".وأعجبت تشانماي روح هذه المرأة الحية.

وبعد العشاء سمعنا صوت رجل ينادي من الخارج.

"هوبوسته، هوبوسته"، فهرعت المرأة العجوز لتفتح الباب.

وسألها الرجل: "لماذا تبكرين بإغلاق الباب؟"، وكانت الدنيا تمطر في ذلك اليوم وكانت قد أزلجت الباب مبكرًا.

وسألته السيدة العجوز أن يجلس، لكن الرجل قال إن عليه العودة في الحال، وظل واقفًا، ورأت تشانماي من الغرفة الخلفية أنه رجل طويل

القامة، وأن له حاجبين كثيفين وعينين كبيرتين، فاجتذب انتباهها وراحت تتفحصه بعناية من خلف الستار، وكان يمكن أن يطلق على فمه اسم (عريض) ولم تكن أنفه مدببة، فكانت تتجاوب -في كثير أو قليل- مع الوصف الذي أعطاه الصبي، فاضطرب قلبها لكنها لم تبدِ أي دليل على الريبة.

وسأل الرجل الطويل القامة في نبرة قلقة: "مضي شهر منذ بعت تلك الحاجيات بثلاثة آلاف دولار، أريد النقود!".

فأجابت الخالة (هو): "لقد بيعت كما قلت لك، وهي عند موكلي، ولكن ماذا أصنع أنا وهو لم يدفع بعد الثمن؟ عندما يدفع فسوف أحول عليك النقود".

"لكن ذلك مضى عليه من الوقت ما يكفي، أحضري النقود حالما تتسلمينها".

وغادر السيد المكان، ودخلت الخالة (هو) وقد بدت في غاية الكرب.

وسألتها تشانماي: "من الزائر؟".

"إني مخبرتك يا تشانماي، إن اسم السيد هو هانج، وهو يقول إنه كان يشغل وظيفة مأمور تسايتشاو، وهو الآن متقاعد، وأنا لست أصدقه فأنا أعرف أنه يكذب، امرؤ عظيم وهو لا يفتأ يسألني أن أبيع بعض حلية!

وهو يقول إنه (سمسار) حلي. وربما كان كذلك وربما لا يكون، لكن لديه حلي طيبة، وذات يوم سألني أن أبيع عنه بعض الحلي فبيعت، لكن وكيلي لم يدفع الثمن بعد، وأنا لا ألومه لأنه عديم الصبر".

"وهل تعرفينه تمامًا؟".

"نعم في الأمور المصلحية، وربما أكثر من ذلك، وأنا لم أرَ قط امرءًا مثله؛ فإني لا أستطيع أن أسبر غوره، إنه سخي اليد، فهو إذا ما رأى أن بي حاجة إلى المال أعطاني دون أن يسألني في ذلك شيئًا، عند مجيئه المرة الثانية سأقدمه لك".

أما تشانماي فقد ثار اهتمامها إلى أكبر حد، لكنها جاهدت في ألا يبدو عليها ذلك.

وكان هانج يتردد على ذلك المكان بين الفينة والفينة، وقدمت له تشانماي كإحدى قريبات الخالة (هو)، وكانت تتمزق بين الرغبة في أن تكشف هل كان هو ذلك الغريب الذي غير مجرى حياتها، وبين حبها لجاذبيته التي لا يمكن إنكارها، ولم تستطع أن تتخلص تمامًا من الاشتباه في أنه ربما يكون ذلك الرجل بعينه الذي كانوا يجدون في البحث عنه، وجاهدت عن الغريب الغامض، وكان أكثر ما حيرها هو أنه يمكن أن يسمى أنفه بـ(الأفطس)!.

وفي إحدى مقابلاتها جلست تحدق فيه، وقد ضاعت في غمار أفكارها، فقال لها هانج معلقًا على ذلك في سماحته المعهودة: "فيم تحديقك هكذا؟ إن جميع علماء الفراسة يقولون إن لي وجهًا يتفتح بالسعادة وأن في شحمتي أذني السعد كذلك". ثم جذب شحمتي أذنه الثقيلتين وقال: "انظري لقد جلبت السعادة للناس دائمًا".

وكان هانج رجلا مسليًا شهمًا حسن الإصغاء وكان يرتدي ملابس خلابة، وكان مغرورًا بشكل واضح، خيلاؤه أمارة من إمارات سحره، لكنه كان من ناحية أخرى كثير الاهتمام بالناس، ولذلك سأل تشانماي أن تخبره بقصتها، وأصغى إليها في عطف، فانحاز لجانبها ولم يقاطعها إلا ليعرب لها عن اشمئزازه من قساوة زوجها السابق تلك القسوة العارمة، وكان إشفاقه عليها مشوبًا بالإخلاص حتى عندما كان يمازحها.

وبعد مقابلتهما الثانية سأل تشانماي أن تركب له زرًا فابتهجت أيما ابتهاج، وتبين لها أنه كانت له أعمال تجارية حقيقة تحدو به إلى أن يجيء ويرى المرأة العجوز بشأنها، لكنه الآن كان ينتحل المعاذير للإكثار من الزيارات، وطالما جاء بزجاجة معه وبعض الفطائر والطرف الصغيرة الجديدة التي وعد بها المرأتين، وكان يعلن لهما أنه قدم لتناول طعام العشاء، وكان يشكو من أنه جوعان، ثم يتطاول فيعلم تشانماي كيف تصنع طبقًا من فخذ الخنزير وملبس الزنجبيل على طريقته هو، وقال إنه عندما يكون للرجل الشجاعة على أن يصور أمرًا فعلى المرأة أن تطاوعه.

وسألتها الخالة (هو) بعد أن رحل: "ماذا ترين في هذا الوغد؟".

"رأيي فيه أنه رجل حسن العشرة".

"لقد كلفني ذات يوم أن أفعل شيئًا ما من أجله، وهو ما لست قادرة على القيام به حتى الآن".

"وماذا كان ذلك الشيء؟".

"إنه يعيش وحده، وقد سألني ذات يوم أن أبحث له عن امرأة يخطبها، فلماذا لا تتركيني أقوم بما يلزم وأقدم له الاقتراح؟ أنا أعتقد أنك قد صادفت هوى في نفسه وأنه سيطرب لهذا الاقتراح".

فقالت تشانماي مفكرة: "سأرى ذلك".

"ترين ماذا؟! إنه رجل جذاب ذو سحر فماذا يمنعك؟ إذا كنت لا تزالين على تعلقك بذلك الحمار زوجك السابق فإنك لأغبى من عرفت، أوليس هذا رجلًا بهي الطلعة؟ إن لديه المال، وسيمكنه أن يقوم بما تحتاجين إليه وستخرجين من تحت يدي".

فقالت تشانماي: "أرى لزامًا علي أن أخبرك أنه قد وقع من نفسي موقعًا حسنًا، ولكن هناك مسألة أحب أن أوضحها".

"وما هي؟"

"إني ليخالجني الاعتقاد بأنه هو بعينه ذلك الشخص الغريب الذي بعث بالمذكرة وفصم عرى زواجنا".

أما الخالة (هو) فقد انفجرت في ضحكة جزت الحيرة على تشانماي.

"إنه يوافق تلك الأوصاف في كثير أو قليل كما تعلمين".

"أية بلاهة هذه؟! كم من رجال طوال في هذه الدنيا! وكم من رجال لهم حواجب ثقيلة وعيون كبيرة! أهذه هي غلطته؟ ولنفرض أنه هو ذلك الغريب فماذا يكون الأمر؟ لقد عوقبت في كعكة لم تأكليها فدفعت الثمن والكعكة هنا، إنها لكِ. ولو كنتُ في مكانك لتزوجت ذلك الغريب لأكيد ذلك الوحش الذي كان زوجًا لك".

أما تشانماي فإنها لم تستقر على رأي، إن يكن هانج غير ذلك الغريب فإنها ستحسن إلى نفسها أيما إحسان، وإن يكن هو فلن تسوء زوجها بأية كيفية، لقد شرعت تحس بحلاوة الانتقام.

وبعد ذلك جاء هانج فكانت أعظم ابتهاجًا مما سبق، وقد عقدت العزم على اختباره.

وكان قد جاء بزجاجته الخاصة وقال: "هلمي اشربي نخب سعادتي بلقاء سيدة جميلة مثلك".

"كلا" لن أشرب إلا نخب شحمتي أذنيك السعيدتين".

هكذا أجابت السيدة الشابة، وقد ساعدها الشراب كثيرًا ولم تستطع أن تحافظ على وقارها أكثر مما فعلت، وفي النفس التالي بدرت منها عبارة: "يقال إن الغريب يشبهك".

"حقًا؟! هذا شيء يشرفني، فكري في رجل له الجسارة لأن يفعل مثل هذا الفعل ألا يكون محمودًا؟ لو أنني رأيتك من قبل لوددت أنني صديق لأحد الدوقات، لست مصدقة أياي؟ لا أخالك تصدقين. ومهما يكن من شيء فهناك شيء في صحة شحمتي أذني السعيدتين"، ثم صب لنفسه كأسًا أخرى أتى عليها في جرعة واحدة.

وقالت الخالة (هو) معلقة في فرح: "انظري كيف يكذب!".

فقال هانج وهو يضع كأسه: "كوني عاقلة! إنك لم تقع عيناك أبدًا على الرجل، فأنى لك أن تعرفي هل هو طويل أم قصير؟ لكن زوجك كان من الوحشية بحيث يهجر امرأة جميلة مثلك".

قالت: "أجل أنه لم يمنحني أية فرصة. لقد انتهى كل شيء الآن فيم إذن الاهتمام به؟ إنما أنا متلهفة لأن أعرف من الذي بعث بتلك المذكرة؟" وبالرغم منها احمرت عيناها قليلًا.

وقال هانج: "تناسي كل ما يتعلق بذلك الوحش. هيا اشربي، إن مثل هذا المحيا الصبيح لا ينبغي له الدمع، إن ذلك الرجل لم يكن يدرك مبلغ

هذا الجمال، وأنتِ لا تزالين تفكرين فيه؟ أوه يا لها من دنيا! يا لها من دنيا!".

أما تشانماي فقد استبدت بها الحيرة، وقد حثتها السيدة العجوز على أن تشرب، وعكفت على الشراب على سبيل الانتقام غالبًا، حتى إذا حل وقت الغروب كانت قد بلغت بها النشوة أقصى غاياتها، لقد أدركت لأول مرة أنها حرة، وما كانت تحس ذلك أبدًا من قبل، وقد حباها ذلك شعورًا جميلًا من الغبطة، واستمرت على تكرارها بكيفية بلهاء عبارة: "نعم، ليس لي زوج.. ليس لي زوج".

فقال هانج: "نعم تناسي".

فقالت تشانماي: "نعم تناسي، قل إنك لست ذلك الغريب؟ أفأنت هو؟".

"لا تقولي قولًا أبلهًا، وماذا كنت تفعلين لو أني ذلك الغريب؟".

"كنت أحبك لأنك خلصتني من ذلك الوحش الذي يدعى زوجي، أفلا يكون ذلك مضحكًا لو أن زوجي رآني أشرب مع الغريب هنا الليلة؟!".

"زوجك السابق من فضلك! (صحح لها هانج)، وأنت تعرفين علامَ يدلك هذا؟ سيدلك على أنك عرفت ذلك الغريب وأنك أكلت معه قبل

تلك الآونة. إن آلافًا من النسوة فعلن أشياء من وراء ظهور أزواجهن ولم يطلقن، أما أنتِ فقد طلقت دون أن تكوني غير وفية، أية دنيا هذه؟".

"إنك لشيطان!" قالت تشانماي ثم بدأت تضحك، وكان ضحكها نابعًا من مسرة كما لم تكن من قبل حين كانت هي المسز هوانجقو.

وسألها هانج وقد جعل ذراعيه حولها: "أنا كذلك؟".

فابتسمت له وقالت حالمة: "مرحى أيها الغريب!"، ثم منحته شفتيها وأحست وكأنها انتصرت.

بعد زواجهما أخذها هانج لتعيش في دار بعيدة في الضاحية الغربية، ولم يكن يدور بخلدها أنها ستظفر بمثل هذه السعادة الغامرة، كانا يتجاذبان أطراف الحديث ويتضاحكان وبدأ يصحبها إلى المطاعم الصغيرة، وكانت تذهب معه فرحة، وقد بدا رجلًا ميسور الحال، وكان سخيًا في النفقة، وكان حبيبًا إليه أن يدس النقود في يدها دون أن يسألها حسابًا قط كما كان هوانجقو يفعل، ثم كان له أيضًا صحاب يدعوهم كثيرًا لتناول الطعام، وكان ذلك مخالفًا تمام المخالفة لحياتها مع زوجها السابق.

ولم يعترف هانج صراحة قط بأنه هو ذلك الغريب، وكانت له طريقة معينة في إبعاد هذه المسألة، أو كان يعترف بها بطريقة مترنحة لطيفة تجعل من المستحيل لها أن تقبلها على أنها مسألة جدية، ولكن بعد الظهر من أحد الأيام، وبعد أن شربا قليلًا وأكلا بعضًا من طير الحجل الذي كانا قد

جاءا به من بائع متجول، وأحس بالسعادة تملأ عطفيه وزلق لسانه مرة فقال: "تعلمين إنني أحيانًا أفكر في بائع الحجل ذلك التعس"، ثم كبح جمح نفسه في الحال وأضاف يقول: "الذي أخبرتني عنه" فعرفت تشانماي.

وفي تلك الليلة إذ كانا في الفراش وبعد أن أطفأت تشانماي النور سألته: "أخبرني لماذا بعثت بتلك المذكرة؟".

فساد صمت طويل.

وقال الرجل أخيرًا: "كان يشاغبك، أليس كذلك؟".

"عرفت إذن؟ هل رأيتني؟"

"عرفت لا شك في ذلك، ولست تدركين كم كنتما معًا زوجا مضحكًا، كالبجعة التي تزوجت ذكر السلحفاة!"

"وأين رأيتني"؟

"رأيتك أول مرة وأنت تحركين قدمك خلفه في شارع كانجشتاين، فتوقفت لأسألكما عن الطريق، أما هو فجذبك بعنف وعلى وجهه تعبير غليظ ناقم لا يمكن أن أنساه، وكان ذلك في الربيع الفائت وأنت لا تذكرين هذا، فرأيت أنك مثل عصفور في قفص، لكن حسنك بهرني عندما رأيتك، فقلت في نفسي: لسوف أطلق هذا العصفور، لكن ذلك جشمني المتاعب الجمة؛ فإن لك أعداء كما قد تعلمين".

فشهقت تشانماي: "أنا؟".

"أنت تعرفين قريبك تشانج أره الذي نزل بداركم فترة من الوقت يسأل زوجك أن يبحث له عن وظيفة؟".

"أنت إذن تعرف تشانج أره؟".

"نعم، هل تعلمين لماذا لم يأتِ لزيارتك عشيرتك في الشعيرة الدينية؟ لمعاملة زوجك لتشانج أره، فإنه عاد إلى داره وأخبر كل أهل القرية بذلك، وكنت قد أحببتك إلى حد الجنون، وكنت أرى فيك صورة جنية، رسفها شيطان وحش في الأغلال".

قال: "ولكن أنى لك أن تفعل مثل هذا؟ ما تناولت قسط طعامك، وكنت أعيش عيشة سعيدة".

فأجابها: "نعم سعادة عصفور في قفص، تذكرين قبل أن أرسل لك الخطاب الداهم بيومين بعد أن عاد زوجك إلى الدار مباشرة تناولت الطعام في مطعم تايهو معه في الممر؟ كنت هناك وقد اتخذت مجلسي إلى المائدة التالية، نعم كنت جد سعيدة فلم يستغرق مني أكثر من دقيقتين لأدرك أنك كنت خائفة منه، ولقد كرهت ذلك الرجل وكنت ألاحظ أنه لم يشاورك ولو مرة واحدة في اختيار الطعام، فقد كان يأمر بما يحبه هو وكنت تأكلين في ذلة وجمال وطاعة، أما أنا فكنت أغلي من الغيظ، فعملت على أن أهيئ الظروف لرؤيتك، لكن صبي الحجل ذاك هو الذي أفسد هذه

الخطة، كنت قد هويتك إلى حد الجنون، وكنت أتتبع المحاكمة كل يوم بطريق الخالة (هو) وكنت آمل أن يطلقك، لكنني لم أتوقع أن تسير الأمور هكذا كما كنت أشتهي".

وفي اليوم التالي رأت هانج يكتب خطابًا، فانتظرت حتى فرغ ثم باغتته فخطفته منه وقالت ضاحكة: "أو تعرف أي معنى يحمله ذلك الخطاب الذي في يدي إذا ما سلمته للمحكمة؟".

أما هانج فأحس بصدمة خفية، لكنه ما لبث أن استعاد رباطة جأشه وقال: "لن تفعلي".

"ولماذا لن أفعل؟".

"أعرف أنك تقصدين خط يدي، ولكن لا تنسي أنك تعيشين الآن مع ذلك الفاسق، وعلى الأكثر سيحكم عليك بجريمة الفسق، والقاضي لا يستطيع إدانة رجل مرتين".

"يا لك من شيطان".

ثم انحنت وقبلته قبلة طويلة حارة، فاحتج عليها هانج متضاحكًا: "إنك تعضينني".

"وهكذا أكشف عن مقدار حبي لك".

وحل عام جديد وكان من مألوف عادة تشانماي الذهاب برفقة زوجها السابق إلى سيانجكوشن في ذلك اليوم يصطليان بالسعادة للعام الجديد، فاقترحت على هانج أن يفعلا ذلك فذهبا إلى المعبد سويًا.

وتذكر هوانجقو هو الآخر زيارتهما لسيانجكوشن في عيد رأس السنة كل عام، وقد أحس الآن بالوحدة والتعاسة منذ القضية التي دارت في المحكمة، ولم يكن سر الغريب قد أمكن التوصل إليه، وكان قد عاد إلى القصر مرة ثانية، والآن وقد انفصل عن امرأته تذكر شيئًا فشيئًا خصالها الطيبة، وكتما تذكرهما كلما استيقن براءتها، فقد دلل كل شيء على ذلك، مسلكها في أثناء الاعتقال، والمحاكمة وشهادة الخادم والجيران، فعض بنان الندم وحمل نفسه حملًا على أن تلبس ثوبًا جديدًا، ثم أخذ بعضًا من البخور وذهب إلى المعبد.

وقد غص المكان بالناس كما كانت العادة في عيد رأس السنة، وعندما خرج هوانجقو لمح زوجته السابقة مع رجل طويل القامة فلم يرياه، ولذلك انتظر بالخارج حتى يخرجا وراح يتجاذب أطراف الحديث مع بائع عرائس من الطين، فلما رآهما يهبطان درجات المعبد أخفى نفسه في الزحام وهو ينتفض غضبًا وغيرة.

وتأثرهما حتى خرجا من الرتاج ثم ناداها من خلفها، والتفتت تشانماي فعرفته وهي تجفل، كان رث الهيئة ناحل البدن، وكانت ترهق وجهه قترة من الحزن شديدة.

"أوه! أهذا أنت؟!"، صاحت بضيق واحتقار باديين، وكانت نبراتها وطريقتها مختلفين تمامًا عما اعتاده من زوجة مطواع، حتى ظن لفترة من الوقت أنها شخص آخر.

"تشانماي، ماذا تفعلين هنا؟ هيا بنا إلى الدار، إني لا أستغني عنك". ثم رمق الغريب بنظرة هادئة.

وسأله هانج: "من أنت؟ أسألك أن تكف عن معاكسة هذه السيدة"، ثم التفت إلى تشانماي وسألها: "ما علاقة هذا الرجل بك؟".

فأجابته: "إنه زوجي السابق".

"هيا بنا إلى الدار، لقد عفوت عنك، إنني قد أسأت بك الظن"، وكانت نبرته المتوسل الذليل على أغلب الظن.

وسأل هانج المرأة وهو يلفظ كلماته ببطء ونظرته مصوبة عليها: "لم يعد زوجك، أليس كذلك؟".

فنظرت تشانماي إلى هانج وقالت: "كلا".

وسألها هوانجقو مرة أخرى: "هل لي في كلمة معك؟".

فنظرت تشانماي إلى هانج، فأحنى رأسه موافقًا وانتحى ناحية.

وسألته تشانماي: "ماذا تريد؟" وقد بان في صوتها الغضب فجأة.

"من هو ذلك الرجل الذي معك؟".

فتكلمت بمرارة: "وهل ما أفعله الآن يدخل في اختصاصك؟".

فتوسل إليها: "هل استحلفك بأيامنا الخاليات أن تأتي معي إني أريدك!"

فدنت منه تشانماي خطوة وقد برقت بعينيها ورفعت عقيرتها قائلة: "دعنا نوضح هذه المسألة، أنت لم تردني فلقد قلت لك إنني بريئة فما صدقتني وما أبهت بي، أعيش أم أضحي في عداد الهالكين لقد قلت إن هذا ليس من شغلك، ومن حسن الحظ أنني لم أمت، وما أفعله الآن لا يدخل في اختصاصك".

فتغير وجه هوانجقو وحاول الإمساك بها، فقامت لتخلص نفسها وهي تزعق: "دعني وشأني.. دعني وشأني!".

كان الزوج السابق من الدهشة بحيث ارتجفت قبضته، أما هي فخلصت نفسها منه ومضت إلى هانج.

وصرخ هانج: "دعها وشأنها أيها المشاكس".

وأخذ بيدها فانطلقا دون أن ينسبا ببنت شفة، وبقي هوانجقو وحده مشدوهًا، وإذ راحا يمشيان هبط الشارع من ورائها ثم سمعاه يناديها ويقول: "لكنني سامحتك يا تشانماي.. سامحتك!".

إلهة الحجر الكريم

(لم يعرف مؤلفها)

كانت الرحلة إلى أعالي خانق (يانجتسي) رحلة مشوقة ومحفوفة بالمخاطر، بيد أني وصلت أخيرًا إلى منزل المحافظ المتقاعد في إحدى مدن الضواحي القريبة من (تشينجتو). كان المحافظ جماعًا للتحف الفنية مشهورًا، وقد قيل عنه أنه في أيام نفوذه قد استغل مركزه السياسي في الحصول على القطع الفنية القيمة، فكان إذا رغب في حيازة تمثال من البرونز أو لوحة زيتية فهو لابد حاصل عليها، إما بدفع ثمنها أو بوسائل أخرى، ولا يمكن أن يعد من الحقيقة أنه دمر فعلًا أسرة أبت أن تبيعه قطعة من برونز شانج، كانت هذه هي الشائعة، لكن المعروف أن حبه للأشياء النادرة قد بلغ حد الصدق، فضمت مجموعته نتيجة لذلك بعض الكنوز التي لا تقدر بمال.

تلقاني المحافظ في غرفة الاستقبال بالطابق الأرضي القابع في البرج الغربي، الذي كان الوصول إليه عن طريق ثلاثة أقنية متتابعة، وبالنسبة لجماع التحف كانت الغرفة عارية غالبًا من القطع الفنية، لكنها كانت مؤثثة بالخشب الأحمر المألوف تغطيه وسائد حمراء وجلود من جلود النمر الأرقط.

وكان للزخرفة رشاقة البساطة التي تشعرك بجمال الذوق وثقافته، وكنت وأنا أحادثه أتطلع باستمرار إلى الصورة الظلية الرائعة التي تمثل زهرية (صان دي بيف) وإلى أغصان زهر البرقوق القائمة على النافذة المطلة على المنظر تتطلع إلى حديقته في الخارج.

وأدهشني من المحافظ أنه كان في مظهره واحدًا من أرق من عرفت من الرجال، وربما رققته الشيخوخة، لكن النظرة إليه جعلت من العسير تصديق الشائعات عما وصف به من القسوة، وقد لاقاني وكأنني صديق قديم له قد نزل عنده طلبًا لحديث من أحاديث الصباح، ورحت أتساءل عما إذا كان صديقي الذي أعد لهذه الزيارة قد أخبره بمرماي من زيارتي هذه، أم أن المحافظ كان من التقدم في السن بحيث لم يتذكر شيئًا؟!.

لقد حسدت هذا الرجل؛ لأن كل التأثير الذي أثره في نفسي أنه كان مغتبطًا ببقائه حيًا في مستقره الجميل الذي كان قد بناه لنفسه.

وبأدب ذكرت له مجموعته ذائعة الصيت.

فقال بضحكة لطيفة: أوه، اليوم أنا أملكها وفي السنوات التالية سوف يملكها غيري، وأنت ترى أن أسرة واحدة لا تمتلك كنزًا من الفن أكثر من مائة عام وتلك الأشياء لها مصيرها الخاص، إنها ترانا وتسخر منا.

واكتسب صوته وهو يتكلم حيوية خاصة، والآن وضع البيبة بين شفتيه.

قلت: "وهل تصدق هذا؟"

وتمتم دون أن يخرج القصعوم من فمه: "بلا شك".

فسألته متهيبًا: "وماذا تعني؟"

"كل شيء قديم قدمًا حقيقيًا لابد أن يكتسب شخصيته وحيويته من ذاتيته".

"تعني أنه يصبح روحًا؟"

وعاد الرجل الشيخ مرة أخرى إلى حديثه: "ما هي الروح؟ إنها ما يبلغ عن الحياة، إنها ما يعطي الحياة المولد، خذ قطعة من الفن مثلًا فالفنان يصب فيها خياله ودم حياته بمعنى حقيقي تمامًا، مثلما تصب الأم دم حياتها في الجنين. ولماذا تتعجب من أن يكون لها حياة من ذاتيتها حين تدخلها روح الفنان؟ إنها عندما يعطيها الفنان المولد قد يموت هو نفسه كما حدث على سبيل المثال مع إلهة الحجر الكريم مثال الرحمة.

لم أقصد إلا رؤية بعض لمخطوطات ولم أكن قد سمعت بإلهة الحجر الكريم، فإن قلة قليلة من الناس هم الذين سمعوا بها، لكن استفساري الخالي من الغرض قد دفع إلى لقصة من أعجب القصص التي سمعت بها.

لم أكن على تمام الثقة، ماذا كان يعني حين ذكر إلهة الحجر الكريم والظروف الاستثنائية التي بعثت على خلقها، وفي أثناء اختبارنا للمخطوطات، حاولت دائبًا أن أعود بالحديث إلى ذلك الموضوع.

قلت وأنا أشير إلى مخطوط قديم: "إن من الحقيقي طبعًا أن شيئًا من شخصية الفنان يبقي من بعده، وأنه يعيش بعده في عمله".

فأجاب المحافظ في اقتناع: "نعم، فكل شيء حسن وجميل يبقى حيا على الدوام، ويصبح كما هو الحال مع إلهة الحجر الكريم".

"هذه حالة خاصة وهو لم يمت بسببها بصفة مطلقة، لكنه لابد بالمثل أن يكون ميتًا، لابد أن يكون ميتًا بعد خلقه".

أضاف ذلك بعد برهة صمت: "أنت ترى أن جميع ظروف حياة هذا الفنان تبدو وكأنها توحي بأنه قد ولد ليخلق هذه القطعة من العمل، وأن يصاب من أجلها، وما كان مستطيعًا أن يخلقها بطريقة غير هذه".

"لابد أنها قطعة من العمل غير عادية! هل لي أن أراها؟"

بعد محاولات لبقة أخرى وافق المحافظ على أن يطلعني عليها.

ومع أن بعض نفائسه بالطابق الأرضي من البرج فإن آلهه الحجر قد جعلت بالطابق الأعلى.

"من الفنان؟"

"شخص يدعى (تشانج بو) غير معروف للناس في الواقع، وقد عرفت قصة حياته من الكاهنة العجوز التي تعيش في صومعة (كوكاو)،

واضطررت إلى أن أهب قطعة كبيرة من أملاك المزرعة لمديرة الراهبات، أعني لتلك الكاهنة العجوز الماكرة، قبل أن تسلم لي التمثال، وكان ذلك بعد أن ماتت الراهبة التي كانت تملكه، ولا شك أنه هنا محل عناية أكثر مما لو كان معه".

هذا التمثال الصغير الذي صنع من نوع الثريات، الأبيض غير المألوف والمرقع باللون الأخضر، قد قام في علبة من الزجاج في وسط الطابق الأعلى، تحميه شعيرة من الحديد المشغول، وكان من الثقل بحيث لم يستطع أحد أن ينقله.

قال المحافظ: "سر حولها برهة قصيرة وسوف تظل تراك".

لقد خدعت بالطريقة التي أشار بها إلى التمثال كما لو كان حيًا حقيقيًا، ولقد خالجني شعور غريب في الواقع وأنا أدور حول هيكل الإلهة بأنها تتبعني بعينيها.

كان تمثالًا معبرًا عن فاجعة، فقد كان التعبير على وجه الإلهة كأنها هاربة في لحظة كارثة، وذراعها اليمنى مرفوعة عاليًا ورأسها مرتدة إلى الوراء، وذراعها اليسرى ممتدة قليلًا إلى قدام، كان التعبير تعبير امرأة انتزع جسمها من شخص أحبته، ربما وصفت بأنها تمثال صغير لإلهة الرحمة صاعدة إلى السماء ويدها ممدودة تبارك الجنس البشري، ولكن لا أحد ممن رأوا هذا التعبير على وجهها أمكنه قبول هذا التفسير وكان مما لا يصدق أن فنانًا يستطيع أن يودع تمثالًا لا يزيد علوه على ثماني عشرة بوصة مثل

هذه الخبرة الحية التي لا يمكن أن تنسي، إن ثنيات ردائها كانت غير تقليدية، كانت حلقًا فرديًا وشخصيًا محضًا.

"وكيف وقع هذا التمثال في حوزة الراهبة؟"

أنعم النظر إلى الوضع الكلي للتمثال، إلى وضع الهرب وأمارة الحب والهلع والعذاب في عينيها، ثم سكت، ثم قال على حين غرة: "فلننزل تحت وسوف أحكي لك القصة كاملة".

اعترفت الراهبة واسمها (مبان) بصحة القصة قبل أن تموت، وربما لم تروِ الكاهنة القصة الصحيحة بكل تفاصيلها، بل ربما حورت قليلًا فيها لتجعلها أكثر جاذبية، غير أن المحافظ قد ضبط بعض النقاط الهامة وحققها لنفسه، وطبقًا لما ذكرته الكاهنة، كانت الراهبة منطوية على نفسها أشد الانطواء، لكنها كانت شخصًا جيد الثقافة، ولم تبح لأحد بشيء عن نفسها إلا وهي على فراش الموت.

ربما كان ذلك منذ أكثر من مائة عام، وكانت (مبان) في ذلك الحين شابة سعيدة تعيش في (كايفنج)، في بيت تحف به حديقة كبيرة، ولما كانت هي الابنة الوحيدة لأحد كبار الموظفين، وهو المفوض (تشانج)، فقد أفرط في تدليلها، وكان قاضيًا على جانب كبير من القسوة، لكنه أفاض على ابنته من كل حنانه، وكما يحدث عادة جاء عدد من الأقارب ليعيشوا في الدار الكبيرة، وكان المثقفون منهم يعطون مناصب في الحكومة، أما الأميون فكانوا يعملون خدمًا في وسط تلك العائلة الكبيرة.

وذات يوم نزل عندهم ابن أخ بعيد النسب، وكان اسمه (تشانج يو) وكان صبيًا على جانب من الذكاء في السادسة عشرة من عمره، وكانت أصابعه النحيلة الجميلة تسترعي النظر بالنسبة لفتى ريفي، وكان موقعه من الأسرة حسنًا إلى حد أن الأم قررت أن يناط به مهمة القيام بشئون الضيافة، برغم أنه لم يعرف القراءة والكتابة.

كان يكبر (مبان) بعام واحد، وإذ كانا لا يزالان طفلين، فقد تلاقيا دائما وتحادثا وتضاحكا، فقد استطاع (تشانج بو) أن يقص على مسامع (مبان) قصص الريف، وأحبت هي الإصغاء إليه.

ولكن بعد بضعة أسابيع وهن الحماس الأول عند الأسرة قِبَل الغلام، فقد اتصف بصفتين: الشذوذ والصلابة، ولم يكن بصفة أولية مثال الخادم الحق، فكان كثير النسيان لواجبه، ولم يكن أو بالأحرى لم يقدر على أن يتلقى التأنيب من كبرائه إذا بدرت منه بادرة، وهكذا سألته الأم أن يعني بأمر الحديقة، وأخيرًا كان الصبي سعيدًا بالقيام بهذا العمل.

كان (تشانج بو) واحدًا من بين أولئك المبتكرين الذين ولدوا لأن يخلقوا، لا أن يتعلم ما أرادت الدنيا أن تعلمه إياه، وكان سعيدًا السعادة الكاملة حين يكون وحده بين زهوره وأشجاره، وكان يتمشى ويصفر وكأنه أمير الإبداع، وإذ ترك وشأنه استطاع أن يصنع الأشياء المدهشة، وكان قد علم نفسه الرسم بغير معلم، فكان في وقت فراغه يصنع المصابيح الرائعة ويصوغ من الطين كهيئة الحيوان على أعظم ما يتمثل في الحياة.

وعندما بلغ (تشانج بو) الثامنة عشرة بدا وكأنه لا يصلح لشيء، وكان كل ما جذب (مبان) إليه ذلك الجذب الشديد شيئًا هي نفسها لم تستطع معرفته، كان شديد الإهمال، ولكنه استطال بقامته، وأصبح حسن البزة، وكان يهرب بكل شيء، وجعل من نفسه إنسانًا محبوبًا من الأسرة إلا الأب، ونمت ألفة طبيعية بينه وبين أبناء وبنات عمه، ولو أنه كان مفهومًا أنهم برغم كونهم ينتمون إلى عشيرة واحدة، فن مسألة الزواج بينهما لم تخطر على بال أحد.

وأعلن (تشانج بو) ذات يوم إلى سيدة الدار، أنه سوف يتركهم ليتعلم حرفة، وكان قد وجد حانوت صانع حلي، وقدم نفسه كتلميذ، فرأت الأم في هذا خيرًا إذ كان يلازم (مبان) في معظم الأحيان، لكن تشانج ظل يعيش في الدار..يعود كل ليلة بل أنه كان يقول لأبنه عمه أكثر مما كان يقول من قبل.

قالت الأم ذات يوم: مبان، أنتما الاثنان قد كبرتما الآن وبرغم كون الأخ (بو) هو ابن عمك فيجب ألا تكثرا من التلاقي سويًا، حدت كلمات الأم بمبان إلى أن تفكر، ولم تكن قد أدركت تمام الإدراك أنها قد وقعت في حب الغلام (تشانج).

في تلك الليلة لاقت (تشانج بو) في الحديقة، وعندما جلست على مقعد حجري في ضوء القمر ذكرت عرضًا ما قالته أمها.

فأتت والخجل يضرج وجنتيها: "أخي بو، تقول أمي إنه يجب ألا أقابلك كثيرًا".

"نعم، فقد كبرنا الآن".

فنكست الفتاة رأسها خجلًا وقالت: "وما معنى هذا؟" وكأنها كانت تخاطب نفسها.

وأدار (تشانج بو) يدًا خفيفة حول وسطها وقال: "معنى هذا أن بك شيئًا يجعلك في كل يوم أشد جذبًا لي، شيئًا يجعلني أصبو إلى رؤيتك، شيئًا يشعرني بالسعادة حين تكونين بقربي، وأحس بالوحدة والأسى حينما أبعد عنك".

أما الفتاة فتنهدت وسألته: "أنت سعيد الآن؟"

– نعم وكل شيء يتغير. أي مبان، نحن كل منا للآخر. قال ذلك بصوت منخفض.

– أنت تعلم حق العلم أن ليس في استطاعتي الزواج بك، وأن أبوي سوف يهيئان لي زواجًا آخر قبل أن يمضي وقت طويل.

– كلا، لا يجب أن تقولي هذا! لا يجب عليك ذلك.

– إن عليك أن تدرك أنت هذا.

– أنا أدرك هذا فقط.

قال (تشانج بو) وهو يجتذب الفتاة بين ذراعيه: منذ خلقت السموات والأرض خلقت أنت لي وأنا خلقت لك، ولن أدعك تفلتين مني؛ فليس حبي لك ذنبًا.

فهربت (مبان) من حضنه وانطلقت تعدو إلى غرفتها.

لقد كان استيقاظ الحب الشاب شيئًا مروعًا، وأكثر إثارة حينما جاء معه إدراك موقفهما، فما أحلى عذاب الشيء البعيد المنال، ورقدت (مبان) تلك الليلة في السرير تفكر فيما قالته أمها لها، ثم فيما قاله (تشانج) ومن تلك الليلة تغيرت تغييرًا كليًا، وكلما حاولا إيقاف الحب الذي كان قد صحا أحسا بمزيد من الخضوع لسلطانه، وحاولا ألا يرى أحدهما الآخر، وبعد ثلاثة أيام عادت الفتاة إليه في ذلة، وزادت لهفتهما بتلك السرية، تلك كانت أيام الهوى والشباب، والأسى الرقيق، والانفصالات المؤقتة، والتعهدات المتجددة حلوة شديدة الحلاوة، مرة عظيمة المرارة! وعرف كلاهما أنهما في نطاق سلطان شيء أعظم من نفسيهما.

لم تكن لهما خطط، وما زاد شيء على الحب، وطبقًا لتقاليد ذلك الزمان، رشح أبو (مبان) من قبله شابًا بعد الآخر للزواج من الفتاة، بيد أنها حرصت على إبعادهم، وأحيانًا كانت تقول أنها لا تريد القران مطلقًا، شيء صدم أمها صدمة كبرى، ولما كانت لم تزل صغيرة فإن الأبوين لم يلحا

وحيث إنها ابنتهما الوحيدة، فقد كانا راضيين نصف الرضا بأن تبقى معهما مدة طويلة.

في تلك الأثناء كان (تشانج بو) يشتغل ويتعلم حرفة، ووجد (تشانج) في الحجر الكريم عنصره الطبيعي، وجعل من نفسه في وقت قصير –كفنان مطبوع– سيد حرفته، لقد أحبها وعمل بلا ملل حتي كملت كل التفاصيل، وكان رب الحانوت يدهش من نبوغه، وبدأ الأغنياء من الأعيان يترددون على حانوت الجواهر ذاك، ويأمرون بما يريدون.

وذات يوم قرر والد (مبان) أن يقدم هدية إلى الإمبراطورة في عيد ميلادها، وأراد أن يبحث عن شيء ممتاز، وعن قطعة من الحجر كبيرة غير عادية من صنف فائق الجمال، وتبعًا لاقتراح من الأم ذهب المفوض إلى الحانوت حيث كان يعمل (تشانج)، وأفصح له عما أراد، فلما فحص تمثال (تشانج بو) أدهشه منه تفرده.

"يا بني، هنا مهمة خاصة بك وحدك، هذه هدية للإمبراطورة، فإذا أجدت هذا العمل فإن مستقبلك قد تحدد".

وتفحص (تشانج بو) الحجر، واشتغلت يداه به، ولم يسمح (تشانج بو) لأي إنسان أن يرى التمثال حتي يفرغ منه.

فلما أتم عمل التمثال كانت الإلهة في التصميم والصورة التقليدين، لكنه كان آية من آيات الفن في جماله الرقيق، لقد صنع (تشانج بو) ما لا

يقدر محترف أن يصنع مثله، لقد نحت زوجًا من الأقراط يدور بحرية على أذني الإلهة، وكان وجه الإلهة مثل وجه الفتاة التي وقع الشاب في هواها.

وكان من الطبيعي أن يفعم المفوض بالجذل، هذه القطعة سوف تكون شيئًا منفردًا حتى في القصر.

قال الأب: "إن الوجه ليشبه بشكل ملحوظ وجه (مبان)"

فأجاب (تشانج بو) في زهو: "أجل إنها لهي مصدر الإلهام!".

"حسنًا أيها الشاب، منذ الآن قد ضمن نجاحك"، ثم دفع لـ(تشانج بو) بسخاء، وأضاف: "يجب أن تحمد لي أن أعطيتك هذه الفرصة".

وهكذا أصبح لـ(تشانج بو) اسمًا، ومع ذلك فأكثر ما كان يريده لم يفز به، ولم يكن النجاح يعني شيئًا لديه بدون (مبان)، فأدرك أن أعظم رغائب قلبه كانت فوق طاقته، وفقد الشاب اهتمامه بعمله، فلم يقبل العروض المربحة، والحزن سيدة ما زاد على أن عجز عن العمل.

كانت (مبان) تصل الآن إلى سن الحادية والعشرين، العمر الناضج، ولم تكن قد خطبت بعد، وأعد مشروع زواج مع أسرة عظيمة النفوذ ولم تستطع الفتاة التأجيل أكثر مما فعلت، ودعمت خطبتها بتبادل الهدايا.

ولما حطم الفتاة والفتى اليأس أعدا خطة الهرب، وإذ استيقنت (مبان) من قدرة (تشانج) على النفقة، خلعت بعض حليها، فاستطاعا أن يعولا نفسيهما في بعض المقاطعات البعيدة.

أعد الرفيقان الخطة لكي يهربا في إحدى الليالي من خلال الجزء الخلفي من الحديقة، وكما حدث شاهدهما خادم شيخ في ساعة من الليل متأخرة فثار شكه؛ لأن المسألة قد عرفت لكل من في الدار، ولما رأى أن من واجبه حماية الأسرة من الفضيحة، أمسك بتلابيب الفتاة ولم يدعها تفلت، أما تشانج فإنه دفع بالخادم ناحية فترنح الرجل الشيخ، لكنه لم يتركها تفلت فثنى عليه تشانج بضربه أوقعت الرجل التعس على حافة الصخر، وضربت رأسه في حافة أحد الصخور البارزة، فرقد خامدًا على الأرض فلما رأيا الخادم وقد فقد الحياة وليا مدبرين.

فلما تنفس الصبح، صبح اليوم التالي، اكتشفت الأسرة الهرب والخادم الميت، وإذ حاولوا كتمان الفضيحة دلت الجهود المبذولة لاقتفاء أثر الاثنين على فشل ذريع، أما المفوض فقد ارتمى في نوبة من غضب العاجز، وأقسم يمينًا: "سوف أمسح الكرة الأرضية وأعيده إلى العدالة".

وبعد أن هرب الشابان من العاصمة ساحا في الأرض، وأخيرًا وبعد أن تفاديا المدن الكبيرة عبرا نهر (بانجتسي) ونزلا في الصين الجنوبية.

قال (تشانج) لـ(مبان): "سمعت أن هناك حجرًا كريمًا في كيانجري"، فسألته في تردد: "وهل تعتقد أنك تستطيع أن تشتغل في الحجارة مرة ثانية؟ إن عملك سوف يعرف وسوف يفضحك".

فأجابها (تشانج): "كنت أظن أن هذا هو ما أعددنا الخطة لعمله الوقت كله!"

"كان هذا قبل موت (تاي) الشيخ، وهم يظنون أننا قتلناه. هلا يمكنك أن تغير مهنتك بأن تصنع المصابيح أو العرائس من الطين على مألوف عادتك؟"

"ولم؟ لقد نميت رأسمالي بصناعة الحجر".

قالت (مبان): "فعلت ذلك، وهذه هي الكارثة بعينها".

"لا داعي بنا إلى القلق كما أعتقد، تقع (كيانجري) غالبًا على بعد ألف ميل من العاصمة ولن يعرفنا أحد".

"إذن عليك أن تغير أسلوبك، لا تصنع هذه الأشياء غير المألوفة، افعل فقط ما يكفي لجلب العملاء".

أما (تشانج بو) فقد عض شفتيه ولم ينبس بكلمة، هل يقنع نفسه بما كان يفعله ألف من صناع الحلي الأواسط حتي يبقى مجهولًا في مأمن؟ أم هل يدمر فنه أو يدع فنه يدمره؟ لم يفكر في ذلك قط من قبل.

لكن امرأته لم تخطئ، وخشيت أن يكون صنع شيء رخيص من الوجهة التجارية ضد طبيعة زوجها، وأدركت أيضًا بعد أن عبرا نهر (يانجتسي) أن قوة غامضة كانت تجر زوجها نحو طريق هذا النوع من الحجارة في (تيانجتسي)، الطريق الذي أدى إلى ممر الجبل العظيم في (كانتون) حتى السهول الجنوبية الشرقية الغنية، ولم يجرؤ على التوقف عند (ناتشانج) العاصمة الإقليمية، فانطلقا حتى (كيان)، وأثارت الزوجة مرة ثانية مسألة تغيير المهنة، وأنتجت (كيانجزي) أجمل أنواع الكاولين الأبيض وأجمل صنوف الصيني، وكان الصيني يرضى موهبته الفنية بشكل مساوٍ تمامًا لذلك، لكن تشانج بو لم يكن ليتوقف.

قال تشانج بو: "حتى لو فعلت ذلك لصنعت مثل تلك التماثيل التى ستظهرني للناس، أم أنك تريدني أن أخرج العمل الوسيط الرخيص؟ إني لعلى ثقة أن العمل هنا في الحجارة في غاية الأمن".

وسلمت زوجته ضد غريزة المرأة: "إذن أضرع إليك أيها الحبيب، من أجل خاطري ألا تجعل لنفسك اسمًا، إننا في محنة، وإذا فعلت ذلك فسوف يقضى علينا بالدمار".

قالت هذا لأن ذلك كان اعتقادها، لكنها عرفت أنه ليس من المحتمل أن يقنع زوجها بأي شيء سوى أجمل صناعة تستطيع يد أن تصنعها وبإحساسه الرقيق بالجمال، وحبه للكمال وزهوه بعمله وحدبه على الحجر

الكريم، لم يكن ما يهرب منه (تشانج بو) حقيقة هو الشرطة بل هو نفسه، وشعر بمهزلة المأساة في موقفه ذاك.

استطاع (تشانج بو) بحلي زوجته أن يبتاع مجموعة من الأحجار غير المنحوتة من شتى الصنوف، وأن يقيم حانوتًا، وكانت (مبان) ترقبه في أثناء عمله.

وكانت تقول له: "هذا جميل جمالًا يكفي، أي عزيزي، وليس ثمة من يصنع خيرًا منه فمن أجل خاطري، أرجوك!".

وتطلع إليها (تشانج بو) وابتسم ابتسامة الأسى، وشرع في صنع عدد من الأقراط العادية المستديرة والقلائد، لكن الحجر الكريم هو ذلك الحجر الذي يتطلب تعبيره الخاص وعلاجه الخاص، ومن الخطأ أن تقطع حجرًا لصنع قلادة يمكن أن يصنع منه حلق بديع. وهكذا كان (تشانج) يصنع في العادة سرًا بادئ ذي بدء، وبغير ارتياح بعض الأشياء البارعة البديعة الممتازة بالطرافة الأخاذة، وهذه الأشياء كانت تختطف بأسرع ما كان يصنعها، وجلبت له من الربح ما يربو كثيرًا على السلع التجارية التي هي أرخص ثمنًا.

"حبيبي، أنا قلقة!"، توسلت إليه (مبان) ثم قالت: "أنت على وشك نيل الشهرة، وإني لأتوقع طفلًا فأرجوك أن تتريث".

فصاح تشانج: "طفل! نحن الآن أسرة".

وغمغمت (مبان): "لكننا الآن في حال ميسرة".

كانا في حال ميسرة فعلًا، وبعد عام كانت سمعة (باوهو جيد) قد توطدت، وكان ذلك هو الاسم الذي منحه تشانج لحانوته، وجاء الناس من عليه القوم كافة يبتاعون مصوغاته، وأصبحت مدينة (كيان) نفسها تعرف بأنها هي المدينة التي يعرج إليها الناس في طريقهم إلى العاصمة الإقليمية، ويناولون بعض المصنوعات الحجرية الثمينة.

ذات يوم دلف رجل إلى الحانوت، وبعد أن تلفت حواليه بغير اكتراث في المعروض من السلع سأل: "ألست (تشانج بو) قريب (تشانج) المفوض في كابفنج؟"

فأنكرها تشانج بو في الحال قائلًا إنه لم يذهب قط إلى كايفنج.

وحدجه الرجل بنظرة شط ثم قال: "إنك لتجيد النطق بلهجة أهل الشمال إجادة كافية، أمتزوج أنت؟"

"هذا ليس من شغلك".

واختلست (مبان) النظر من وراء الحانوت، فلما انصرف الرجل أخبرت تشانج أن ذلك الغريب هو أحد السكرتيرَين بمكتب أبيها، وربما دله عمله في الحجر الكريم على حقيقته.

وفي اليوم التالي عاد الرجل فدخل الحانوت.

قال تشانج بو: "إني مخبرك أنني لا أعرف شيئًا عما تتحدث عنه".

"حسن جدًا، وإني مخبرك عن (تشانج بو) أنه مطلوب القبض عليه بجريمة قتل، وبإفساد ابنة المفوض وسرقة جواهره، فإذا أردت إقناعي أنك لست (تشانج بو) فعلًا أفلا تسأل زوجتك أن تقدم إلي فنجانًا من الشاي؟ ولسوف أقنع إذا ما تبين لي أنها ليست ابنة المفوض".

"أنا أدير حانوتًا هنا، فإذا حاولت أن تزعج مأمني، فإني مضطر إلى أن أسألك الرحيل".

أما الرجل فقد غادر الحانوت وعلى وجهه ابتسامة ساخرة.

وسرعان ما حزما حجارتهما ومقتنياتهما الثمينة واستأجرا قاربًا، وارتحلا بعد أن خيم الظلام هاربين عبر النهر، ولم يتجاوز ابنهما ثلاثة أشهر.

ربما كان هذا من قبيل الصلابة البشرية أو ربما كان خطة قدرية من السماء، واضطر إلى التوقف على (كانشين)؛ لأن الطفل الوليد قد أصيب بمرض، وكان قد نفذ كل ما معهما من مال بعد شهر من الرحلة، وكان على (تشانج بو) أن يأخذ واحدًا من أجمل ما أبدع وهو كلب رابض مطبق إحدى عينيه، وأن يبيعه لأحد تجار الحجارة، ويدعى وانج.

قال التاجر: "يا للعجب! هذا هو حجر باوهو الكريم، فليس محل غير هذا المحل يستطيع صنع مثل هذه الأشياء، وهي أشياء لا يستطيع تقليدها أحد ألبتة".

"أصبت، لقد ابتعته من باوهو" قال ذلك (تشانج بو) وقد سر بينه وبين نفسه.

كانت كانشين تقع على سفح سلسلة من الجبال العالية، وكان الفصل شتاء، وأحب تشانج بو السماء الزرقاء الصافية ونسيم الجبل، ودبر هو وزوجته الخطط للمكث في تلك المدينة، وقد تحسنت صحة وليدهما، وقرر تشانج أن يفتتح حانوتًا جديدًا، وكانت كانشين مدينة كبيرة، ورأيا من الحكمة أن يسيرا مسافة أكبر مما سارا ويستقرا في مدينة تبعد عنها عشرين ميلًا تقريبًا، واضطر تشانج بو إلى أن يبيع قطعة أخرى من قطعه.

سألته مبان: "لماذا فعلت هذا؟"

"لأننا محتاجون إلى المال لإقامة حانوت".

قالت مبان: "أصغ إلي هذه المرة، تفتح حانوت خزف هنا؟"

"ولماذا.." وقطعت مبان عبارته:

"كاد يقبض علينا لأنك لم تسمع كلامي، الحجر الكريم عندك هو كل شيء، أيكون هو أحب إليك من زوجك وولدك؟ ربما تغيرت الأحوال فيما بعد فتعود إلى عملك مرة ثانية".

وأقام تشانج بو على غير رغبته حانوتًا لصنع التماثيل الخزفية السوداء المحترقة، صنع مئات التماثيل لبوذا، لكنه كل أسبوع كان يرى تجار الأحجار الكريمة القادمين من كانتون يمرون بهذا الطريق، وكاد تشانج يحن

إلى الإمساك بالحجر مرة أخرى، فكان يطوف الشوارع ويتوقف على بعض محال مصنوعات الحجر، ويكاد الغضب يطل من عينيه، وعاد إلى داره فلما رأى تماثيل الخزف الطري التي كان يشتغل فيها سحقها بين أصابعه.

"طين! لماذا أشتغل في هذه على حين أستطيع أن أشكل الحجر الكريم".

وذعرت مبان من الشرور الذي بان في عينيه وقالت: "ستكون هي دمارك!"

وذات يوم قابل وانج تاجر الحجارة تشانج بو ودعاه إلى غرفته، على أمل أن يحصل على المزيد من حجارة باوهو.

سأله تشانج بو: "أين كنت؟"

فأجاب وانج وهو يحل إحدى الحزم: "إنما جئت لتوي من رحلة إلى (كيان)، أترى أن هذا هو النوع الذي يخرجه حانوت باوهو الآن". أما تشانج بو فسكت، فلما أخرج وانج قردًا مجسمًا صاح تشانج: "تقليد!"

فقال التاجر بصوت خفيض: "أنت مصيب، فليس على وجه القرد أي تعبير، وإنك لتتحدث حديث العارف".

فقال تشانج حزينًا: "من المحتم أن أعرف".

"نعم أنا أذكر أنك بعتني هذا الكلب الرابض الرائع، ولا بأس من أن أخبرك أنني قد ربحت منه مائة، فهل عندك قطع أخرى من ذلك الصنف؟".

"سأريك ما يشبه القرد المجسم الحقيقي من صناعة باوهو".

وأطلعه تشانج بو في حانوته على تمثال كان قد صنع في (كيان)، واستطاع التاجر أن يقنع تشانج أن يبيعه إياه.

وأخبر وانج في رحلته الثانية إلى (فانشانج) بعض أصدقائه في سوق الأحجار الكريمة، بالأشياء البالغة الأهمية التي استطاع الحصول عليها من صاحب حانوت خزف عادي في الجنوب، ومضى يقول: "يبدو من الغريب أن مثل هذا الرجل يمتلك مثل هذا الحجر البديع".

بعد ستة أشهر تقريبًا أقبل ثلاثة من الجند ومعهم أوامر القبض على تشانج بو وابنة المفوض، وأن يؤتى بهما إلى العاصمة، وكان معهم سكرتير مكتب المفوض.

قال تشانج: "سأصحبكم إذا تركتموني أحزم بعض الأشياء".

وأضافت مبان: "وهناك أشياء يجب إحضارها للطفل، ولا تنسَ أنه حفيد المفوض، وإذا أصابه مرض في الطريق كنت أنت المسئول".

كان الرجال قد تلقوا تعليمات من المفوض نفسه بأن يعاملوهما بالحسنى في أثناء الرحلة، وسمح لتشانج بو وزوجته بأن يذهبا إلى مؤخرة الحانوت، في حين انتظر الجند في المقدمة.

وكانت لحظة وداع قاسية وقبل تشانج زوجته وابنه، ثم وثب من النافذة وهو يعلم أنه لن يراهما مرة ثانية أبدًا في حياته.

"سأحبك إلى الأبد!" همست مبان في رقة من النافذة.

"لا تمس الأحجار الكريمة مرة أخرى".

وألقى تشانج بو نظرة أخيرة على مبان، وهي تقف بالنافذة وذراع منها مرفوعة تودعه الوداع الأخير.

ولما توارى انسحبت ودخلت مقدم الحانوت لتضع بعض حاجاتها في حقيبة، وكأنها كانت جد مكبة على الحزم وأمرت الجند بأن يأخذوا وليدها، وراحت تجاذبهم الحديث وهي ماضية في حزمها، فلما ارتاب الجند وفتشوا الدار كان تشانج بو قد ذهب.

وعادت مبان إلى دارها لتجد أن أمها قد ماتت وأباها شيخ كبير، رقت له بعضًا ما، وسري عن الرجل الشيخ نوعًا لعلمه أن تشانج بو قد أفلت؛ لأنه لم يكن يدري ماذا يفعل به، ولا يزال غير مستطيع قط أن يسامح الرجل الذي دمر حياة ابنته، وجر مثل هذه التعاسة على الأسرة كلها.

مرت سنون ولم تأتِ أنباء عن تشانج بو، ووصل إلى العاصمة من كانتون ذات يوم المحافظ يانج، وأولم المفوض وليمة غداء تكريمًا له، وفي أثناء تناول طعام الغداء اكتشف المحافظ أنه قد جاء بتمثال من أعظم التماثيل قيمة، وهو ينافس إلهة الرحمة الذي كان المفوض قد أهداه للإمبراطورة، وكان يحمل شبهًا ملحوظًا به في الأسلوب وجمال الصناعة، وفي الحقيقة كان يفضله جمالًا بمراحل عدة، وقد هم أن يعطيه الإمبراطورة؛ لأن التمثالين سوف يكونان معًا زوجين كاملين.

وكان ضيوف الغداء على شك، وأعربوا عن الرأي بأن ليس هناك قطعة من الفن يمكن أن تكون أجمل من إلهة الإمبراطورة.

قال المحافظ بفخار: "البث حتى أشهدك أياها".

ولما فرغوا من الطعام وأزيل ما على المائدة، جيء بصندوق خشبي لامع كان مع المحافظ، فلما أزيحت الإلهة البيضاء للرحمة من صندوقها وجعلت في وسط المائدة خيم عليهم صمت مطبق، حيث كانت إلهة الرحمة حزينة.

وهرعت خادم لتبلغ مبان بذلك من خلف حاجز (بغدادلي)، وتطلعت مبان إلى داخل الغرفة فامتقع لونها حين رأت الشكل الحجري على المائدة، وهمست: "ما صنعه غيره، إني لأعلم أنه هو"، ثم استجمعت أشتات شجاعتها لتسمع هلا يزال تشانج بو حيًا يرزق!

وسأل أحد الضيوف: من الفنان؟

فأجاب محافظ كانتون: "هذا أهم جزء في القصة، إن الفنان ليس عامل أحجار كريمة يعمل بنظام، وقد وقعت لي معرفة أخباره عن طريق ابنة أخي زوجتي، وكانت ذاهبة إلى حفلة عرس واستعارت أساور زوجتي الأثرية؛ لكي تتحلى بها في هذه المناسبة، وكانتا متشابهتين فكانتا تصميمًا معقدًا لاثنين من حيوان التنين مجدولين، فكسرت ابنة أخي إحداهما فأفزعهما ذلك غاية الفزع، وكان شيئًا يستحق الإشفاق حقًا؛ لأن السوارين كانا منفردين، وإعادتهما إلى وضعهما الصحيح شيء عسير، فأصرت ابنة أخي على أن تصنع أحد السوارين، فذهبت إلى حوانيت كثيرة لكن واحدًا منها لم يقم بالمهمة، فقد قال صراحة أنه لا يمكن عملهما في هذه الأيام، فأعلنت عن ذلك في مشارب الشاي، وبعد ذلك بقليل ظهر رجل رث الثياب، وقال إنه قد أتى استجابة للإعلان، فاطلع على السوار ثم قال إن في مقدوره عمله، ثم إنه فعل ذلك، وكان هذا هو أول ما سمعته عن ذلك الرجل.

وعندما علمت أن الإمبراطورة تود لو حصلت على تمثال آخر ينافس إلهة الرحمة، تذكرت ذلك الرجل، فأمرت بأجمل قطعة حجر يمكن الحصول عليها من (كانتون) وأرسلت إليه، فلما أحضر بان عليه الخوف الشديد، وكأنه قبض عليه كاللص، واستغرق مني وقتًا طويلًا أن أوضح له أنني إنما طلبته ليصنع إلهة للرحمة تنافس تمثالًا في حوزة الإمبراطورة، ولما وضعت له القرطين الدائرين جفل، لكنه لم يقل شيئًا، وأخذ الحجر تدريجيًا فاختبره من

كل زاوية، فسألته: "ما الخطب؟ أوليس نافعًا من حيث الجودة؟"، وأخيرًا استدار وقال بزهو: "هذه القطعة تكفي، وهي تستأهل المحاولة، ولقد ظللت حياتي آمل في الحصول على حجر أبيض من هذا الصنف، وسأصنعه أيها المحافظ على شريطة ألا تدفع لي أجرًا عنه، واتركني في حرية كاملة لأنفذ ما في بالي".

وجعلته في غرفة ذات أثاث بسيط ومنضدة، وركبت كل المهمات التي طلبها، وكان رجلًا يغلب عليه الشذوذ؛ فما خاطب أحدًا، وكان خشنًا قليلًا مع الخادم الذي كان يدخل عليه بما يلزمه، لكنه كان يعمل عمل الملهم، ولم يسمح لي أن أرى التمثال مدة خمسة أشهر، ومرت شهور ثلاث أخرى قبل أن يطلع إلى خلقه، وبدا على وجهه تعبير غريب.

قال: "ها أيها المحافظ، أود أن أشكرك، إن هذا التمثال لهو قصة حياتي".

وانصرف قبل أن أجيب، فتعقبته لكنه كان قد اختفى تمامًا.

وسمع الضيوف صراخًا في الغرفة المجاورة، صراخ امرأة كان من شدة المفاجأة وعمق النبوع من القلب إلى حد تجمد كل واحد في مكانه، ولكن المفوض اندفع وحده ناحية مبان الراقدة على الأرض.

وهمس ضيف كان صديقًا حميمًا للأسرة، همس إلى المحافظ المشدوه، قال: تلك ابنة المفوض، إنها هي الإلهة، وإني لعلى ثقة أن الفنان الذي تشير إليه لم يكن غير زوجها تشانج بو.

ولما أفاقت مبان بلغت المائدة قبل أي واحد منهم، وارتفعت يداها في أناة لتلمس التمثال الصغير، ثم استقرت عليه بإحكام، وكأنها وهي تشاهد وتتحسس التمثال كانت على مساس بزوجها مرة أخرى، ورأوا كلهم أن التمثال الدري والفتاة كانا صورة واحدة.

ومنذ ذلك اليوم ازدادت مبان وهنًا على وهن، وكأن مرضًا خفيًا كان يأكل جسمها، وكان المفوض مستعدًا لاغتفار كل شيء إذا أمكن العثور على زوج ابنته، فلما كان الربيع التالي جاءت كلمة من محافظ كانتون بأن الجهود كافة لإعادة تشانج بو قد برهنت على فشل ذريع.

وبعد انقضاء عامين مات ابن تشانج بو من وباء اجتاح المدينة، أما مبان فانتزعت شعرها ودخلت أحد الأديرة، وقد أخذت معها إلهة الحجر الكريم باعتبارها ملكها الوحيد، ووفقًا لقصة الكاهنة لاحت وكأنها تعيش في دنيا وحدها ولم تسمح لأيه راهبة أخرى ولا الكاهنة بأن تدخل حجرتها.

وأخبرت الكاهنة المحافظ أن مبان قد رؤيت ليلًا تكتب صلاة إثر صلاة وتحرقها أمام التمثال، ولم تدع أحدًا يدخل في تلك الدنيا الغامضة دنياها، لكنها كانت سعيدة ولم تكن لتؤذي أحدًا.

وبعد انقضاء عشرين سنة على دخول مبان الدير أو نحو من ذلك رحلت إلى ربها، وهكذا بادت إلهة الرحمة الكاهنة، ولم يبقَ إلا إلهة الحجر الكريم.

العفاف

(لم يعلم مؤلفها)

وراء (سوتشاو) تقع مدينة صغيرة بين سلسلة من التلال الزرقاء الطويلة، وبحيرة ويشان الجميلة في أرض المستنقعات، وينهض صف من القباب الحجرية على طريق قديم. والمنظر مألوف تمامًا في القرى الصينية والمدن الصغيرة والكبيرة، كأبواب زخرفية أقيمت إحياءً لذكرى علماء جازوا ضروب الشرف، ونساء عرفن بالفضيلة والعفاف، هي قباب العفاف التي تمنح الشهرة للأرامل اللائي فقدن أزواجهن وهن في سن الشباب، واللائي ظللن على إخلاصهن لذكريات الأزواج بقية الحياة، إن الرجال يحلو لهم الإعجاب بهذا الإخلاص، ولكن إلى أي مدى يكون ذلك الإخلاص شاقًا؟ ذلك مأسوف تجيب عنه القصة التالية.

صرخت المسز (وين) في بنتها: "ادخلي يا ميهووا! ليس هذا مسلك فتاة بالغة في مثل سنك أن تقف عند باب الشارع هكذا".

فدخلت (ميهووا) منكسة الرأس خجلة، كانت فتاة جميلة بشكل غير عادي، لها شفتان حمراوان مرحتان، وأسنان بيضاء مستوية وبشرة في لون زهرة الخوخ، وإذ كانت صريحة طليقة عنيدة، فقد كانت من ذلك النوع الذي لا ينبته إلا الريف، وهي برغم تنكيسها رأسها وصدوعها بأمر الأم، فإن خطواتها عاصية وراح قلبها يرفرف لأمر.

قالت لأمها مدافعة عن نفسها: "إن فتيات أخريات يتطلعن" ثم انطلقت مولية.

وكان جماعة من الجند مقبلين في قارعة الطريق، يبلغون السبعين أو الثمانين من الجند، وردد الشارع الضيق صدى فرقعة الأقدام على الطريق المرصوف، وكان الرجال والنسوة قد أقبلوا من دورهم، يتفرجون ويستطلعون ويتأملون إلى أنين كأن هؤلاء ذاهبين، ووقفت النسوة الأكبر خلف الأبواب المصنوعة من الخيزران المتشابك بحيث تتيسر لهن الرؤية دون أن يراهن أحد.

غير أن (ميهووا) كانت قد تجاوزت الستار، ووقفت على حافة الحجر المرتفع القائم خارج الدار، بحيث يمكن للرائي أن يراها، وكان الكابتن الطويل القامة السائر في مؤخرة الجند ذو العينين اللتين تلمح النساء قد تأخر اثنتي عشرة خطوة، فلما مر حيته الفتاة ببسمة متأنية، فنظر ومضى قدمًا، ولكن لم يفته أن يدير رأسه ليختلس نظرة ثانية من محيا الفتاة الجميل.

كان لواؤه قد أقبل من ساتشاو على بعد ثلاثين ميلًا إلى الجنوب، لاقتلاع عصابة من قطاع الطرق كانت قد اختبأت في التلال الزرقاء، وكانت تلك العصابة تشن غارات جريئة متزايدة على البقاع المجاورة.

وفي مدينة صغيرة مثل (هانشوانج) كانت إمكانيات إسكان الجنود قليلة وعسيرة، وكثيرًا ما كانوا يبيتون في دور المعابد، في حين أعطي

الضباط بطاقات بسكنى المنازل، حيث يستطيعون أن يناموا في أسرة مريحة.

وكان الكابتن قد تعرف إلى بيت الفتاة.

وبعد الظهيرة، عندما فرغ من توزيع المؤن على الجنود، وكان قد اتخذ لذلك مكانًا مقابلًا لتلك الدار، عفت نفسه أن تكون مأواه، كانت دارًا تشغلها أرملتان، أم الفتاة وجدتها، وكانت الغزوة تستغرق شهرين.

ظلت الفتاة التي رآها في ذلك الصباح تترقب أمها وجدتها أن تقولا نعم، كانت الجدة امرأة ذابلة في نحو الستين تضع على رأسها عصابة سوداء مصبوغة من المخمل، أما الأم الشابة مسز (وين) فكانت فرعاء تميل قليلًا إلى النحافة، لا تزال تحتفظ بجمالها وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها، لها أنف أعلى من المألوف لكنه منمق، وفم صغير دقيق، وبدت كأنها صورة أخرى من الفتاة، بحيويتها الشابة وعبارتها اللطيفة، ولهيبها العاطفي المقهور، وما إن رآها الكابتن حتى اعترتها رعشة مقرونة بابتسامة، وسرعان ما تصلبت شفتاها، ونقلت عيناها الذكيتان النابضتان بالحياة إلى الكابتن نوعًا من السرية التي تستحق أن يسبر المرء غورها.

كانت فكرة إدخال رجل غريب بدعة إلى حد ما في نظر تلك الأسرة ذات الأجيال الثلاثة، لكن نظرة واحدة إلى الضابط الشاب..جعلت من السهل على قلب أيه امرأة أن تطرب للفكرة، كان الضابط طويلًا نحيلًا له منكبان عريضان، وملامح متناسقة، ولم يكن من ذلك النوع الصاخب

الصلف غير المثقف، الذي يصادفه المرء عادة في صفوف الجيش، ولا من ذلك النوع المتكبر الجامد الذي يتكلف العظمة كما كان يفعل الآخرون، وكان خريج أكاديمية بينانج العسكرية، وكان كلامه ينم عن ثقافة، وتهذيب وكان اسمه (لي صانج).

"لن أرهقكن أيتها السيدات بطلب طعام؛ فكل ما أحتاج إليه هو الفراش، ومكان طيب أغتسل فيه، وفنجان من الشاي بين الفينة والفينة".

قالت (وين): "ليس هذا البيت مما يليق بمثلك أيها الضابط"، ثم مضت تقول: "ولكن إذا لم تر بأسًا فيسرني بقاؤك معنا".

كانت الدار غير مرتبة، مظلمة بعض الشيء، وكان الأثاث راقيًا لكنه كان عاريًا، وخشبيًا قد ذهب عنه طلاؤه، لكن الدار كانت نظيفة حسنة الإدارة، استطاع أهلها بلا شك أن يعطوه سريرًا من الخيزران في القاعة الأمامية، وكانت (ميهووا) تنام في الفناء الداخلي مع أمها، وكان وجود جدتها ضمانًا ضد القيل والقال.

عندما رأت الأرملتان الضابط كان أول ما هو بخاطرهما عنه أنه رجل (ميهووا) ابنتهما، التي كانت قد وصلت سن الزواج وكانت ذات جمال أخاذ، كان لها أنف أمها الجميل وعيناها اللتان تنبضان بالحياة، ولكن ليس لها ملامح أمها المتناسقة، وكان لها معجبون كثيرون، وكان ثمة تشاؤم من ناحية الحظ السيء في أسرة (وين) هذه؛ كان بالأسرة من قبل أرملتان لأن الجد والأب كليهما كانا قد ماتا بعد زواجهما بقليل، ومادام ذلك قد

حدث مرتين، فمن الممكن أن يحدث ثالثة، وكل من كان يفكر في الزواج من ميهووا سرعان ما يفكر في الانتحار، وإن كانوا قد حرموا الملكية إلا من هذه الدار.

نظر الشبان الذين أقبلوا على (ميهووا) نظرة كلها يأس وقنوط، وترعرعت (ميهووا) لتكون الفتاة اليانعة بنت التاسعة عشرة التي لم يتقدم لخطبتها أحد.

إذن فلقد حدث تغير عظيم في حياة هذه الدار عندما جاء (لي صانج)، وقد أبدى اهتمامًا عظيمًا بميهووا واستمع بصحبة النساء، وكان مهذبًا مع الجدة، جذابًا للشابة مسز وين، كان متحدثًا لبقًا، وكان في أمور الحب ودودًا ممتعًا متدفقًا، وأدخل إلى بيت الأرامل الضحك والبهجة مما لم يألفنه منذ سنوات، حتى لقد وددن لو بقي إلى الأبد.

وعندما عاد الضابط من معسكره كانت مسز وين في القاعة الداخلية، وكان ثمة خزانة كتب صغيرة حوت طائفة من كتب الدراسات القديمة وكتب الأدب، كان بعضها عبارة عن مجلدات كبيرة موضوعه في قماش أزرق باهت اللون، لا تكاد تبدو مستحبة لدي السيدات، وكان هناك بعض الكتب الرخيصة من قصص الحب والدراما وبعض كتب الأطفال.

قال الضابط لمسز وين مشيرًا إلى تلك: "إنكم تمتلكون مجموعة طيبة من الكتب".

"انظر فيها إذا شئت، لقد كانت من مقتنيات زوجي".

"فما بال كتب الأطفال في دار بلا أطفال؟".

واحمر وجه الأرملة خجلًا، ثم قالت: "في الواقع ليس لي حظ كبير من العلم، إنني أعطي دروسًا لصغار الأطفال والفتيات الشابات".

كان هذا واضحًا، فقد كانت هناك نسخة من كتاب (القراءات الأدبية للبنات)، وبضع نسخ من الكتاب القديم المسمي (واجبات النسوة)، وثلاث أو أربع نسخ من (نماذج السلوك العائلي)، وكلها من نوع الكتب المستعملة في تعليم البنات.

"أبهذه الطريقة تحصلين على رزقك؟ هذا مدهش! كنت أتساءل كيف تعول هذه الأسرة نفسها؟"

فضحكت المسز وين وقالت: "إن الإنسان دائمًا يدبر، فحين كنت صغيرة كنا نعتمد على شغل الإبرة، أما الآن فأنا أعطي دروسًا بالمنزل، والفتيات يجئن ويذهبن، والدروس غير منتظمة إطلاقًا، وبعضها يستغرق شهورًا والبعض الآخر يستغرق عامًا أو نحو عام، والأسر تؤثر أن ترسل بناتها إلي؛ لأنها تعرف أنني أزودهن بتعاليم الخلق القويم، وهذا تمامًا ما تحتاج إليه البنات ليصبحن أمهات ناجحات".

كان مكبًا على قراءة (مجموعة أقوال تشوشي) وهو كتاب حبيب، كتبه الأخلاقيون الكونفيوشيون، كان أكثر انفعالًا في الفلسفة من بقية

الكتب، وقالت مسز وين: " كان هذا يخص زوجي، وهو ليس لنا نحن النساء. لقد أخبرتك أنني لست على حظ من العلم، وكل ما تحتاج إليه المرأة من التعليم هو معرفة الضروريات الحيوية وواجبات الأم، والزوجة والأخت والابنة، ومبادئ التقوى والطاعة والعفة، وما أشبه ذلك".

"إني لعلى ثقة أن الفتيات اللواتي تربين على يديك ينشأن على تلك المبادئ السليمة، ولا بد أن زوجك كان كونفوشيوسيا قحًا".

وكأن هذا كان إيذاء للأرملة فسكتت ولم تقل شيئًا، كان حديثها مزيجًا من التواضع والخيلاء.

لقد أحب ابنتها لكنه استطاع أن يرى أن الأم أكثر صفاء، تتحلى بقوة الصبر التي ولدها الأسى العميق، ولم يكن يخالجه أي شك حتي تلك اللحظة أن الأرملتين اللتين ينزل بدارهما كانتا صاحبتي مركز ممتاز بين المتدينات، وأنهما لمكانتهما قد حصلتا على قبو من أقبية العفاف.

وبعد عودة الضابط من لينشينج تبين له أن هناك حديقة للخضر كانت تقع في مؤخرة الدار، يمكن دخولها عن طريق مطبخ الدار، وذات صباح ذهبت ميهووا تتسوق ولم يرها الضابط حينذاك.

سأل عن الجدة أين هي، وفي باله ميهووا.

فأجابته مسز وين: "أعتقد أنها في الحديقة الخلفية، هلم إلى هناك".

كانت الحديقة فسيحة بالنسبة للدار، وكان ثمة بعض أشجار الكمثرى وبعض الشجيرات الأخرى المزدهرة وصفوف من أنواع الخضر، وكانت مغلقة بجدران، وكان ثمة باب جانبي شرقي يؤدي إلى زقاق ضيق، كان يقوم هناك مبنى مكون من غرفة واحدة، لاح وكأنه (كشك) حراسة وراءه حظيرة فراخ، كانت الجدة جالسة هناك على كرسي خشبي عتيق تستمتع بالشمس، وطافت مسز وين حول الحديقة بصحبة الضابط، وعلى وجهها خليط غريب من التواضع والخيلاء.

كان شيئًا خلابًا، وكان ثمة بريق هادئ في عينيها، وكان هو على يقين أن في استطاعتها الزواج مرة ثانية إذا شاءت.

"أتقومين أنت بأمر هذه الحديقة وحدك؟"

فأجابت المضيفة: "كلا، إن الذي يقوم بها هو (تشانج) الكهل".

"ومن هو تشانج الكهل؟"

"إنه بستاني، وأحيانًا عندما نعد الشمام والخيار والقرنبيط للبيع نبيعهما بثمن طيب، إنه أعظم الرجال الذين عرفتهم أمانة". ثم أشارت إلى غرفة الحراسة وقالت: "إنه ينام هنا".

في تلك اللحظة ظهر البستاني من خلال الباب الجانبي، وكان عاريًا حتى وسطه لأن الفصل كان صيفًا، وكانت عضلاته الملفوحة تلمع تحت أشعة الشمس، كان يناهز الأربعين، له ضفيرته المجدولة حول رأسه على

عادة الفلاحين، كان ذا وجه يشع إخلاصًا، يحَب لأول وهلة، يضاف إلى ذلك أنه كان خلوًا من المشاغل.

وقدمت سيدة الدار تشانج الكهل إلى الضابط، وسحب البستاني دلوًا من الماء رافعًا إياه وهو ذاهب إلى البئر ذات الحواف، ثم أخذ قرعة عسل وشرب بعضًا من مائها، وصب الباقي على يديه لغسلها، وكانت بساطة هذا الفعل شيئًا يسترعي النظر، وبينما هو يفعل ذلك، شاهد الضابط شفتي المضيفة الحساستين الرقيقتين ترتعشان وقالت: "لست أدري ماذا أصنع بدونه، إنه لا يرتضي أن يتناول أجرًا وليس له من يعول، وكل ما يحتاج إليه هو وجبات طعامه ومكان ينام فيه، وهو يقول أنه ليس أفضل من البقاء معنا، وكان للجدة نعم الابن الطيب البار، والآن هو وحيد تمامًا وليس له أقارب، لم أرَ في حياتي امرأة في مثل هذه النظافة والأمانة والجد، ولقد صنعت له سترة في العام الماضي وكان علي أن أقنعه بقبولها، وهو يعطي الأسرة أكثر مما يأخذ منها".

وتناولوا الطعام، فلما فرغوا منه، عاد الضابط إلى الحديقة، وكان تشانج الكهل عاكفًا على تثبيت حظيرة الكتاكيت وعرض (لي) أن يساعده.

وراح يتجاذب أطراف الحديث مع البستاني عن مسز وين.

قال تشانج الكهل وهو يثرثر: "يا لها من سيدة، لولاها لما ظفرت أمي بمثل تلك الشيخوخة السعيدة المستريحة، لقد فقدت مسز وين زوجها،

وكان هذا منذ عهد بعيد، لكنني سمعت أنه حين كان يمشط شعره صباح يوم خر على الأرض ميتًا، أما مسز وين الشابة فقد ترملت في سن الثامنة عشرة، وكانت هي الأخرى تتوقع ابنًا ولدًا، ولكنها وضعت أنثي، ولست أود أن تعاني مثل هذه الشابة مرارة الترمل مدى الحياة، ومما يجافي الإنسانية ألا يكون لها ابن تعيش من أجله يحمل اسم العائلة، والناس يقولون أن تعاسة الحظ تلازم الذكور في هذه الأسرة، وأنه ليس هناك فرد يرضى أن تتبنى هذه الأسرة ابنًا له، وهكذا حافظت سيدتي على الفتاة محافظة شديدة، لقد رأيت ميهووا تترعرع لتصبح هذه الشابة الجميلة، لماذا لا تقترن بها أيها الكابتن؟ سوف تكون نعم الزوجة للرجل الذي يستطيع أن يعولها".

وابتسم (لي صانج) لبساطة أسلوب البستاني، ولم يسترح أن يخبره البستاني بمفاتن ميهووا.

"وما قبة العفاف هذه؟".

"ألا تعرف؟ إنها القبة التي يمنحها الإمبراطور لأصحاب الفضيلة والعفاف، إن أسرة وين تنتمي إلى هؤلاء، لقد تقدم المتحمسون إلى الإمبراطور يطلبون إليه منح قبة من قباب العفاف لأفراد هذه الأسرة.

"أهذا حقيقي؟".

"وفيم مزاحي معك أيها الكابتن؟ يقولون إن الإمبراطور يمنح في العادة ألف (تايل) من الفضة مع التصريح بعمل القبة، وبذلك تصبح السيدة التي يحبوها الإمبراطور بهذا غنية وشريفة، إن سيدتي جميلة وصغيرة ويود كثير من الرجال لو اقترنوا بها، وقد آثرت البقاء دون زواج إكرامًا لحماتها العجوز، لكي تخدمها في سني شيخوختها، خير من أن تتزوج مرة أخرى وتتركها وحيدة، وليس يسعني إلا الإعجاب بها من أجل هذا، وسوف يكون هذا سببًا في إقامة النصب، وإقامة قبة العفاف، يا لها من سيدة!".

أخذ الضابط يغدو ويروح، كان أكثر كلفًا بمطاردة ميهووا من كلفه بمطاردة قطاع الطرق. لقد أحبت ميهووا صانج كما لم تحب فتاة قبلها، وكان صانج قد أسر بحبها، ولم تحاول الفتاة أن تخفي عاطفتها نحوه وإعجابها به، وأخبرته بما أعجبها فيه، ولماذا؟ ربما كان مثل ذلك حيلة أو وسيلة عند الفتيات الأخريات اللواتي عرفهن الضابط، لكن المرء يستطيع أن يدرك الإخلاص الصافي حين يكون الإخلاص من القلب دون اللسان وأحس الضابط أنه موضع زلفى. كانت (ميهووا) فتاة أشبه بالأطفال، تنبض بالحياة، وكانت أحيانًا تبدي الكراهية عيانًا، كل ذلك أضفى عليها جاذبية بالغة في عيني الضابط.

لقد كشف عن حبهما مسلك الفتاة تارة، وطورًا شعور الضابط، كان لي صانج في السابعة والعشرين وكان عزبًا، واقتنعت الجدة بأن هذا الزواج كان أمرًا مقدورًا، وكانت قد اتخذت كل الاحتياطات للحيلولة دون وقوع ما يخرج عن حدود الأدب، كانت الجدة تمضي ليلتها في الغرفة الغربية

ساهرة العين، ونامت مسز وين وابنتها في الغرفة الشرقية الملحقة بالفناء الداخلي، وما إن ينتهي العشاء حتي يغلق باب الساحة الداخلية، وكانت مسز وين تحتاط أكثر من ذلك فتغلق باب غرفتها الخاصة، بيد أن الأم إنما كانت تخادع، نفسها، فإن لي صانج كان يتخلف أحيانًا في المعسكر ليلاقي الفتاة خارج الدار، وكانت ميهووا أحيانًا تغيب بعد الظهر وتعود متأخرة لتناول العشاء، واتفق حدوث ذلك دائمًا مع الأيام التي كان مفروضًا ألا يكون الضابط فيها بالمدينة.

وجاءت ميهووا مرة متأخرة ساعتين عن موعد العشاء لأن الشهر كان شهر يوليه، وكانت الأيام شديدة الطول، وإذ تتبعا طريقًا يخرج بهما من المدينة، مضى صانج ميهووا في طريق مظلل يتاخم بركة كبيرة تؤدي مباشرة إلى جانب جبل مفروش بالأشجار، كان أصيلًا رائعًا وكان لدغ شمس الظهيرة قد لطفت حدته، وهبت نسمات منعشات في غابة (التنوب) حيث الصخور التي يغطيها الطحلب الأخضر اللألاء، وعلى بعد وراء البركة وضفتيها الخضراوين جثمت البحيرة الجميلة. لقد اكتملت الحياة لميهووا والضابط بجانبها، ولقد كانا قد تعاهدا من قبل على أن يتحابا إلى الأبد، وأخبرت الفتاة صانج كم طبقت شهرة جمال أمها في شبابها الآفاق، وكم من رجل تقدم لخطبتها ولكنها أبت أن تتزوج ثانية، وأضافت ميهووا ما أدهش الضابط: "لو أنني مكانها لتزوجت مرة أخرى من عهد بعيد".

"أولست فخورًا بأمك؟".

"لا ريب، إنني كذلك".

وقال صانج: "شأن كل امرأة فاضلة أن تفعل ما فعلته هي".

فأجابت ميهووا بسرعة وحيوية: "وماذا ترى يكون مذهب فتاة؟ أن تتزوج وتصبح ربة بيت وأمًا لأطفال، أليس كذلك؟ إذن ما كان من اليسير لأمي أن تفقد أبي وهي في ريعان شبابها، وخاصة لأننا فقراء، وأنا لا يسعني إلا الإعجاب بموقفها ذاك، لكن.."

"لكن ماذا؟".

"أنا لا أومن بأقبية العفاف".

فزمجر الضابط.

"لما كبرت فكرت في هذا، أمي امرأة طموح، وهي قاسية على نفسها، وهناك نوع من التصوف يقضي أن يصبح الشخص أرملًا عفًا، وأنا أعتقد أن أمي قد بالغت في هذا، لست أدري لماذا أتكلم هكذا!".

وسأل صانج الفتاة عن قبة العفاف التي كانت الأسرة الدينية تتوقعها لأمها وجدتها.

قالت ميهووا: "إني مسرورة لأمي، ولكن بعد أن يتم زواجنا، إن صحة جدتي في تدهور، وماذا تفعل أمي بألف (تايل) وهي تعيش في عزلة

تامة بلا شيء ترجوه طيلة عشرين سنة أخرى من الاعتكاف في زوايا المجد، إلى أن تقضي نحبها كالجيفة المقدسة؟"

فسر (لي صانج) لكلامها أيما سرور.

ولما أدركت أن الشمس كادت تغرب خلف التلال قالت: "يا صانج يجب أن أعود، لم أكن أعرف أن الوقت قد مر سريعًا هكذا".

سمعت مسز وين من جيرانها أن العاشقين قد رئيا معًا في المدينة، لقد كانا مرة على الطريق المؤدي إلى التل المغطى بالغابات غربي المدينة، واستجوبت الأم ابنتها فاعترفت الفتاة –والدموع في عينيها– بذنبها وقالت إن الضابط قد وعدها أن يقترن بها، فغضبت مسز وين غضبًا شديدًا.

"ما ظننت قط أن ابنتي سوف تجلب العار إلى هذه الدار، لقد كنت أنا وجدتك القدوة الحسنة لهذه المدينة، والآن قد دنست أنت اسم عائلة وين، كم سيخوض الجيران في هذه الحادثة الشنيعة حين يكتشفونها؟ ابنتي أنا؟!"

فقالت ميهووا وهي تجفف دموعها: "لست خجلة، كلا لست أخجل من أن أحبه، لقد بلغت سن الرشد فحل لي الزواج، إذا كنت لا تحبينه فاتيني بشاب حسن، ابحثي لي عنه! أنا شابة ولن أسمح لنفسي أن أقضي

الحياة خالية من الحب في هذه الدار، أما أنت يا أمي فلست أرى رأيك في هذه الحياة الفارغة التي تسمينها الترمل الفاضل".

أما مسز وين الشابة فقد اختفت من هول المفاجأة.

قالت وهي تشهق وتترنح أمام طعنة ابنتها غير المنتظرة: "ماذا تقولين يا بنية؟!"

فقالت الفتاة: "أجل يا أمي! لماذا لا تتزوجين ثانية؟ إنك لا تزالين شابة".

"ألا ليت السكين يقطع لسانك!".

لا تستطيع إلا (طفلة) أن تقذف بالحقيقة حادة كشظية قنبلة، وبمثل هذه الطريقة العارية، لم يدر بخلد الابنة كم آذت أمها، كم أحدثت كلماتها في بدنها جروحًا عميقة، وكانت فكرة زواج الأم مرة ثانية مروعة وصادمة لا تخطر للأم على بال، "لقد علمتك كل هذه السنين، أفلا تستحين؟!".

وتداعت المسز وين وانهارت، وراحت تصرخ بصوت مرتفع أسيف.

وكفت المسز وين عن تعنيف ابنتها، وتكورت في كومة من التعاسة، أما ميهووا فقد أفزعها ذلك ولم تفه بكلمة أخرى. إن ما قالته ميهووا عن فراغ حياة الأرملة كان حقًا لا ريب فيه، ودفنت الأم رأسها في بدنها على المائدة واسترسلت في البكاء، وتركت أفكارها تجوب الآفاق، لقد كانت

سعادة ميهووا مع الضابط حقيقية ومقنعة، ويا ليتها قابلت هي مثل هذا الشاب حين كانت في طور الشباب.

وقررت المسز وين أن تنتظر حتي يعود الضابط إلى الدار، ربما كان بالمدينة الآن، ربما تذهب الفتاة لتحذره أو لتهرب معه، وحبست الأم ميهووا في غرفتها.

وعندما عاد صانج بعد ذلك بثلاثة أيام، حيته المسز وين بمفردها مقطبة الجبين.

"أين ميهووا؟ وكيف هي؟".

"لا بأس بها، إنها بالداخل".

"ولماذا لا تخرج؟".

"كنت أترقب هذا السؤال"، وسرعان ما أجابت مسز وين في صوت مكلوم وقد زمت شفتيها: "ظننت أنك قد كنت بالمدينة، وتعجبت لماذا لم تضرب موعدًا معك؟".

فسألها صانج في دهشة: "أي موعد؟ لم آتِ إلا صبيحة اليوم".

"لا تتظاهر، فإني أعرف كل شيء عن هذا الموضوع".

وعبرت بنبراتها عن غضب مكبوت غير ما اعتاد أن يسمع، وعادها مرة أخرى ذلك الخليط الغريب من التواضع والخيلاء اللذين خلبا لبه.

وسكت الضابط، وانبعث من مؤخرة الدار صوت ميهووا وهي تبكي في هوس: "أخرجني! هأنذا صانج! خلصني يا صانج".

وانفجرت صارخة في شبه عواء.

وصاح صانج واندفع داخلًا، وسمعها تعالج الباب، وسمع عويلها المؤسف وقال: "ما كل هذا؟".

وتبعته مسز وين إلى القاعة الداخلية، وأقبلت الجدة من غرفتها، وقالت السيدة العجوز وهي تمشي الهوينى ناحية الضابط، قالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع: "أيها الشاب ألا تتزوجها؟".

وتهدل وجه صانج من الدهشة وقد فهم، وظلت الفتاة على نحيبها: "صانج.. صانج، أخرجني".

"سأتزوجها بلا شك، فهلا تفتحين لي الباب الآن لأتكلم معها؟".

وفتح الباب وخرجت الفتاة وارتمت في أحضان الضابط وهي تصرخ: "أخرجني يا صانج أخرجني".

والآن جاء دور الأم لتنهار مرة ثانية، واعتذر الضابط مرة بعد أخرى وحاول أن يسري عنها، ولكن بدا أن بكاءها لم يكن ذا علاقة بهذا الموضوع، إنه شيء لم يستطع الضابط أن يدرك كنهه في تلك اللحظة.

وتكلم وكأنما عرف تمام المعرفة أين وقف ،كان جد أسف لما فعله لكنه لم يكن لديه أيه فكرة غير الاقتران بميهووا، ولقد تحمل اللوم كله، ورجا أن يسامحوه، فهو مستعد الآن للزواج من ميهووا، وأن يكون زوج ابنتهما المخلص.

وتبددت المشكلة، لقد كان وعد الضابط بالزواج قد صحح الوضع مع الأسرة، وكانت الغارة ضد قطاع الطرق قد انتهت لتوها، وسرعان ما زفت ميهووا إلى زوجها.

وبعد ثلاثة أشهر ماتت الجدة، وجاء الضابط يعاون الأم في إجراءات الجنازة.

وأخبرت المسز وين لي صانج أن العم الأكبر للأسرة الدينية، قد جاء ليطلعها على خطاب يمنحها قبة من قباب العفاف.

ومن الغريب أن المسز وين نفضت كل هذا إلى زوج ابنتها بلا كبير حماسة، بل بإيحاء من الشك أحيانًا.

"ماذا؟ إنه رائع! ألست فرحة؟" قال ذلك لي صانج وهو يرغي.

"لست أدري؟ وكيف حال ميهووا؟".

وحمل لي صانج إليها النبأ بأنهما كانا يتوقعان لتوهما طفلًا، فشرعت المسز وين ترتعد.

"لقد أبطأت في إخباري؟ إنه نبأ عظيم".

قال الضابط: "إنه شيء لا يحظى بمثل شرف القبة أيتها الأم".

فصرخت مسز وين باحتقار: "القبة! فلنقلع عن الكلام في هذا".

وتعجب لي صانج من عدم اهتمامها بمثل هذا الشرف النادر، واسترجع في باله ما قالته زوجته عن عشرين سنة أخرى من (العزلة الفذة في عالم الشرف)، وكان من الصعب الاعتقاد أنها هي نفسها سوف تنظر إلى هذا الموضوع من تلك الزاوية.

"تعتقد أن من الواجب على أن أقبلها؟" سألته المسز وين وهي تعود مسرعة إلى الموضوع.

"إن من البلاهة ألا..."، واضمحل صوت لي صانج حين داخلت رأسه خالجة من الشك، ومضى يقول: "لا ريب أنه بعد منح القبة فإن ترملك سيكون مقدسًا في رعاية الإمبراطور".

ولما انتهت الجنازة عادت المسز وين إلى الدار وحدها، وكانت القاعتان الأمامية والخلفية لا تزالان مغطاتين بقراطيس التعزية المعلقة، وكان

يمتد بعرض وسط القاعة قرطاس من الحرير، وهو هدية المأمور، وكان مكتوبًا عليه الكلمات الأربع "باب واحد وامرأتان عفيفتان".

وإذ عاشت المسز وين وحدها في تلك الدار، فقد أتيح لها الوقت الموفور لأن تفكر في مستقبلها، فلما نظرت إلى الأمام خافت قليلًا، فمنذ شهور قليلة فقط كانت أم زوجها وابنتها والضابط قد ملئوا تلك الدار بالضحكات المرحة، وقد وقعت أشياء عدة بعضها آخذ برقاب بعض، حب ميهووا وزواجها، وموت الجدة، وهذا الارتقاء المفاجئ إلى قمة الشهرة المجيدة، والطفل.

وكان تشانج الكهل رائعًا طيلة احتفالات الدفن، والآن وقد رأى سيدته جد حزينة، فقد صار أكثر من مساعد، فقد قام بالبيع والشراء مقام ميهووا، وخلص مسز وين من جميع متاعب البيت، ومن كل ما له علاقة بالعالم الخارجي، وكان قادرًا على أن يأتي إلى الدار ببعض الدخل من بيع الخضر، وكانت من مطبخها تراقب البستاني المخلص الأمين وهو مكب على عمله، وأحيانًا كانت وهي في عزلتها الكاملة تخرج إلى الحديقة لتتحدث معه، وكانت الحديقة منعزلة تمامًا ولم يستطع أي جار أن يراهما، فنما بينهما نوع من الألفة.

بيد أن العم الأكبر جاء لزيارتهم ومعه مائة (تايل)، وقد جاء بها من عند المربي الإمبراطوري، فأصبح منح الرتبة والألف (تايل) الآن يقينًا لا ريب فيه.

ولما بارح العم الأكبر المكان، تكون لدى مسز وين يقين راسخ، ترى ما هو؟.

وهناها تشانج الكهل من قلبه، وكان فخورًا بسيدته، ولم يدر بخلده مطلقًا إلا أنها سوف تكون امرأة ذائعة الصيت بعد قليل.

ورغبت مسز وين مرات كثيرة في أن تبادر بالسؤال، ولكن كيف تتقدم سيدة وأرملة عفة مثلها إلى رجل تطلب يده؟ ومضت إلى الحديقة مرات عدة لتتحدث في شئون الحديقة، وكانت هناك السماء الزرقاء والشمس المشرقة من فوقها، وكان تواضعها وكانت خبراتها الطويلة يمنعانها من التفوه بكلمة عما يدور في خاطرها، لم تستطع أن تفعل ذلك، كان تشانج أمينًا أمانة لا حد لها، وكان مخلصًا غاية الإخلاص، ولم يفكر فيها كامرأة، لقد أسقط في يده حين حدث ما حدث.

وعندما ولدت أنثى لميهووا والضابط وفدا على البيت لترى الأم حفيدتها، وقد رنح عطفيها أن تحمل الطفلة الصغيرة الجميلة لتضمها إلى صدرها وتدللها، ولم تكن قد حملت طفلًا منذ عهد طويل، وكانت من الصغر بحيث لا تصلح أن تكون جدة، مما ملأ قلبها سعادة.

"ميهووا، أنا جد مسرورة لك لأنك قد نعمت بزواج سعيد، وخليق بك أن تزهي بطفلك وزوجك".

واغرورقت عينا ميهووا بالدموع، وقد اعتقدت أن أمها قد أصبحت أكثر إنسانية، وأنها قد سامحتها حقيقة، وفي غضون اليوم الأول لزيارتهما رأت ميهووا أمها جالسة في صمت وحدها، وقد كسا وجهها معنى حائر، لم تعد تلك المرأة المنطوية على نفسها، القانعة التي عرفتها ميهووا، وعرف الضابط النبأ الغريب، وحين ذهب إلى الحديقة رأى تشانج الكهل يفلح الأرض، ولدهشته البالغة جره البستاني إلى مكان نومه، وقد سطعت على وجه البستاني نورانية غريبة من السعادة والقلق والحيرة.

"أرجوك أن تشير على بما أفعل أيها الضابط، فإني رجل غير متعلم".

"وما الأمر؟".

وتردد تشانج الكهل، قال: "إنها سيدتي".

"هل حماتي في مأزق؟"

"كلا أيها الضابط، إنك أنت وحدك الذي يسدي إلي النصح، فلست أدري ماذا أفعل؟!".

"ما الذي تريد أن تقوله؟".

"ينبغي أن تخبرني ما المشكل، ماذا حدث بينكما أنتما الاثنين عندما كنت غائبًا؟".

وتباطأ البستاني في كلامه، ولم يكن متحدثًا بارعًا، فلما روى قصته لم يستطع الضابط أن يصدق أذنيه، ومضى تشانج الكهل متأنيًا جادًا.

كانت ليالي الصيف حارة، ونام تشانج الكهل على حصيرة في نصف ثياب، وذات ليلة في الأسبوع السابق، استيقظ ليسمع سيدته تناديه: "يا شانج الكهل"، وكان القمر المائل إلى ذهاب ساطعًا على فراشه، فرأى سيدته تقف بالباب، فانتبه واقفًا وسألها: "أتريدين شيئًا؟".

قالت المسز وين: "كلا إنك في الحقيقة نئوم عميق النوم، لقد سمعت الكتاكيت تقوقئ فظننت أن قطًا جبليًا يسرقها".

ولكي تصل إلى حظيرة الدواجن، لم يكن بد من أن تمر بمكان نوم تشانج الكهل، ولابد أن الوقت كان الثالثة صباحًا، وكان العشب نديًا.

قالت الأرملة: "عد إلى فراشك فقد تصاب ببرد وأنت واقف هناك بلا سترة". ولكن تشانج الكهل أصر على أن يتبعها حتى باب المطبخ.

وفكر تشانج الكهل في القطط البرية الصغيرة التي جاءت من الجبال لتسقط على الدواجن ليلًا، إنه لم يسمع صوت الكتاكيت، كان نومه عميقًا في العادة.

وقالت له المسز وين في اليوم التالي: "أغلق الحظيرة جيدًا واستوثق من أن شيئًا ما لا يستطيع الدخول هنا".

قال: "لا عليك".

هذا لم يحدث قط من قبل، وبدا في الليلة الثالثة كأن قطة برية قد نفذت من خلال الأسلاك وخرجت بدجاجة سوداء، واستيقظ تشانج الكهل عندما أحس أن أحدهم يغطيه بملاءة، وأن سيدته كانت تهزه.

سألها وقد انتبه واقفًا: "ما الخطب؟".

"رأيت قطًا بريًا، وقد وثب من فوق الحائط ثم انصرف".

وما لبث تشانج الكهل أن ألقى على جسده ستره، ثم راحا يختبران الحظيرة، فوجدا بالشبكة ثقبًا كبيرًا، وأشارت له سيدته إلى حيث كانت قد رأت القط البري فما وجدا أثرًا لقدم، وحين أتيا إلى البقعة وجدا الدجاجة السوداء ميتة فوق حوض الزهر، وبعنقها جرح دامٍ، واعتذر تشانج الكهل عن إهماله، بيد أن الأرملة أشفقت عليه وقالت: لم نفقد شيئًا، فإني أستطيع أن أطهو الكتكوت لعشاء الغد".

سألها تشانج الكهل: "يا لك من خفيفة النوم؟".

فأجاب مسز وين "إني غالبًا ما أرقد يقظى بالليل، فأستطيع أن أسمع أقل الأصوات خفوتًا".

وعاد إلى غرفته، ولكن سيدته بقيت بالباب، لقد رأى لطخات من الدم على ثوب سيدته وعلى أطراف أصابعها، وحين رمى الدجاجة الميتة على الأرض صب بعض الماء لها لتغسل يديها، وسألها هل يصنع لها فنجانًا

من الشاي؟، فأبت أول الأمر، وبعد المعاودة وافقت، كانت مستيقظة تمامًا الآن، لا ينتظر أن تذهب لتنام مرة ثانية.

فسألها تشانج الكهل: "هل أحضر الشاي داخل الدار؟".

قالت: "كلا، إنه جميل جدًا هاهنا".

"دقيقة واحدة".

فقالت المسز وين: "لسنا على عجل".

وقعدت مسز وين على سريره، فأحست بالحصير واللوحات الخشبية العارية والملاءات الممزقة التي كان يستعملها كغطاء، وقالت له: "أيها الكهل تشانج، لم أعرف أنك في حاجة إلى غطاء لائق، سأعطيك واحدًا آخر في الغد".

وفي اليوم التالي عندما قدم الدجاجة في العشاء ذكرته سيدته مرة ثانية بالقط الجبلي، وسألته: "هل أصلحت الحظيرة؟".

فقال إنه فعل ذلك طبعًا.

قالت: "قد يأتي القط نفسه الليلة".

"وكيف عرفت ذلك؟".

"لأنه لم يفز بما أراد في الليلة الماضية، لقد كان جد هياب. لقد حصل على الكتكوت، لكنه تركه حين أخيف، إذا كان قطًا عاقلًا فينبغي أن يجيء الليلة أليس كذلك؟".

فاستطرد البستاني: "لقد صحت عزيمتي أن أجلس وأرقب القط وأطلب إلى سيدتي ألا تقلق، سأخفض ضوء المصباح وأيء بكرسي بلا ظهر فأضعه خلف الشجيرة، ومعي عصا من فروع الشجر لأمزق رأس أي قط يجرؤ على إبراز مخالبه في حديقتي، وصعد القمر إلى القمة ولم يظهر قط حتى تلك اللحظة، وهبط القمر مرة ثانية ولا يزال القط غائبًا.

وكان الجو باردًا وعزمت على أن أدخل إلى كوخي، فطرق مسمعي صوت سيدتي تناديني بصوت خفيض: "أي تشانج الكهل".

فاستدرت ورأيت سيدتي في ملابس بيضاء مقبلة من داخل الدار، ولما دنت مني همست: "هل رأيت شيئًا؟".

فأجبت: "لا شيء".

فقالت لي: "فلننتظر في غرفتك".

كانت تلك أجمل ليلة في حياتي، لقد اتخذنا مجلسنا هناك معًا أنا وسيدتي، والكون كله وسنان ساجٍ من حولنا، وكانت قد أعطتني الملاءة الجديدة في الصباح، وكانت الملاءة بيضاء وجديدة، وإذ جلسنا هنا في غير

نظام تطلعنا إلى أشعة الشمس الفضية من خلال النافذة، وكأننا كنا على تعارف منذ زمن طويل.. طويل جدًا.

جلسنا وتحادثنا، أو بالأحرى كانت سيدتي هي التي تتحدث أكثر مما أتحدث، عن جميع الأشياء، عن الحديقة، عن الحياة، والكوخ، والهم، وسعادة القلب. سألتني عن ماضي ولماذا بقيت بلا زواج، فأخبرتها عن عجز مواردي"

وسألته المسز وين: "إذا تمكنت من ذلك، ألا تتزوج؟".

فأجاب تشانج الكهل: "لا شك أنني أفعل"، فبدت الأرملة سانحة حالمة، ولاحت للبستاني كأنها (جنية) جاءت مع ضوء القمر بوجهها الشاحب وعينيها اللامعتين كاللؤلؤتين، إلى حد أن غلب الخوف تشانج الكهل، فسألها: "هل أنت حقيقة مسز وين أم أنت العفريتة (ماكو) آتية في ملابس بيضاء في قمر الحصاد؟".

"تشانج الكهل لا تكن أبلهًا! أنا مسز وين".

ولم يسع البستاني إلا أن ينظر إليها في تدقيق.

"لا تنظر إلي بهذه الطريقة! لا ريب أنني امرأة، المسني".

ومدت ذراعها فلمسها تشانج الكهل، فارتجفت مسز وين.

قال البستاني: "إني لعظيم الأسف، هل أفزعتك؟"، ظننت للحظة أنك العفريتة (ماكو) قادمة في ليلة قمراء".

فضحكت الأرملة، وأحس تشانج الكهل أنه قد سري عنه.

قالت: "أنا حقيقة بمثل هذا الجمال يا تشانج؟ يا ليت هذا الأمر يدوم! أخبرني هل تعتقد أن العفريتة (ماكو) تحب وتتزوج كما يفعل الرجال والنساء على هذه الأرض؟".

فأجاب تشانج الأمين وهو لا يزال بعيدًا عن إدراك المعنى: "وأنى لي علم ذلك؟ أنا لم أقابل العفريتة ماكو قبل الآن".

ثم سألت المسز وين سؤالًا حير البستاني: "ماذا تفعل لو قابلتها الليلة؟ هل تغازلها؟ وهل تفضل أن أكون أنا العفريتة ماكو أو أن أكون امرأة؟".

"سيدتي، أنا لست مصدقك، ليست لي هذه السعادة، وما بال قبة العفاف؟".

"لا تلقِ بالًا إلى قبة العفاف، إني أريدك، سنكون سعيدين معًا، وسنحيا معًا إلى أن تدركنا الشيخوخة، ولن أعبأ بكلام الناس، لقد قضيت عشرين عامًا من أجل الترمل، وهذا يكفي لمثلي. فلتأخذ هذا الشرف نسوة أخريات".

ثم قبلته.

وتسرب الخبر إلى رأس (لي صانج). فصاح ببطء شديد، لقد كان متعجبًا أول الأمر، وكان عاكفًا على الاستماع لكل مقطع، ولم يجب إلا بعد أن غص بريقه في مشقة فصاح: "ما العمل؟ أيها المعتوه! تقترن بهال..؟".

وحمل الخبر وكأنه البرق إلى ميهووا: "إني جد مسرورة لأمي".

ثم عقبت هامسة إلى زوجها: "أمي لا بد أنها هي التي قتلت الدجاجة السوداء، يجب أن تنصب قبة العفاف لأمثال تشانج من الرجال".

وفي ساعة متأخرة من الليل وبعد العشاء، قال الضابط لمسز وين "يا أمي كنت أفكر، هذه الطفلة طفلتي، لقد كانت لك شيئًا من خيبة الأمل، إني على ثقة من ذلك، ونحن لا نعرف متى يكون لنا ابن ذكر يحمل اسم وين".

ورفعت المسز وين رأسها، ومضى الضابط يقول في جد، وقد علق عينيه بالأرض: "كنت أفكر.. لا ينبغي أن تسخري مني يا أمي، إن الجدة قد ذهبت إلى ربها، وأنت الآن تعيشين وحيدة، إن تشانج رجل أمين فإذا سمحت أن أخاطبه فإني أعتقد أنه سيسره تبني اسم أسرة وين عندما يقترن بك".

فاحمرت مسز وين خجلًا وشرعت تقول: "نعم.. اسم أسرة وين".

ثم اندفعت إلى غرفتها.

ولما تم زفافها إلى البستاني كان هذا خيبة أمل قاسية لجميع رجال أسرة وين، الأسرة الدينية.

قال العم الأكبر: "إنك لا تستطيع أن تفهم المرأة!".

سندريلا

للكاتب الصيني: توان تشينج (توفي سنة ٨٦٣)

ذات مرة قبل عهد (تشين) (٢٢٢- ٢٠٦ ق.م) و(هان) ،كان هناك كهف جبلي يقيم به سيد دعاة الوطنيين ورئيس الكهف، تزوج (وو) امرأتين ماتت إحداهما تاركة له طفلة تدعى (يه هسيين)، كانت على جانب كبير من الذكاء والمهارة في أشغال الذهب، وأحبها أبوها حبًا جمًا، لكنه حين مات أساءت زوجة أبيها معاملتها، التي حملتها دائمًا على أن تحتطب، وأرسلتها إلى أماكن خطرة لتجلب الماء من الآبار العميقة.

وذات يوم اصطادت (يه هسيين) سمكة لها زعانف حمر وعينان في لون الذهب، فأحضرتها إلى البيت وجعلتها في حوض ماء وكانت تكبر كل يوم وتنمو حتى لم يستطع الوعاء أن يحتويها، فوضعها في بركة في المكان الخلفي لبيتها، واعتادت (يه هسيين) أن تطعمها بما كانت تدخره من طعامها الخاص، وكانت كلما جاءت إلى البركة صعدت السمكة إلى سطح الماء وتوسدت الشاطئ فإذا كان القادم غيرها، فإنها لا تظهر.

لاحظت هذا المسلك الغريب زوجة الأب التي طويلًا ما ارتقبت السمكة فلم تظهر، وذات يوم لجأت إلى حيلة فقالت للفتاة: "أولست متعبة من العمل؟ ها هي سترة جديدة"، ثم دفعت (يه هسيين) إلى خلع ملابسها القديمة وبعثت بها إلى مسافة تبلغ بضع مئات من الأميال لجلب

الماء من بئر بعيدة، وارتدت زوجة الأب ثياب (يه هسيين). وبعد أن خبأت مدية حادة في ردفها، مضت إلى البركة ونادت السمكة، فلما أبرزت السمكة رأسها من الماء قضت عليها، وكانت السمكة حينئذ أكثر من عشرة أقدام طولًا، فلما طهيت كان مذاقها أحلى مرات من أية سمكة أخرى، ودفنت الأم عظامها في مكان القمامة.

وفي اليوم التالي عادت (يه هسيين) فلما وصلت إلى البركة وجدت السمكة قد فقدت، فلم تزل تبكي حتى هبط من السماء رجل أشعث الشعر يرتدي ثوبًا من خرق، وراح يهدئ من روعها قائلًا: "لا تبكي، إن أمك قد قتلت السمكة وعظامها مقبورة في مكان القمامة، فاذهبي إلى البيت واحملي العظام إلى غرفتك وخبئيها، وكلما رغبت في شيء تضرعي إليها ولسوف يستجاب رجاؤك". وعملت (يه هسيين) بنصيحته، ولم يمضِ وقت طويل وقت حتى كان لها الذهب والحلي، وجميع أنواع الزينة الأخرى من نوع كان من النفاسة بحيث يستحوذ على قلوب الفتيات.

وفي ليلة مهرجان الكهف أمرت (يه هسيين) بأن تبقى في الدار لترعى بستان الفاكهة، فلما عرفت الفتاة الفريدة أن أمها قد رحلت إلى مسافة بعيدة، دست نفسها في سترة خضراء من الحرير، وذهبت إلى المهرجان وتعرفت عليها أخت لها، فقالت للأم: "أو ليست هذه الفتاة أشبه بأختي الكبرى بما يدعو إلى الغرابة؟"، وبدت الأم كأنها هي الأخرى قد تعرفت عليها، ولما أحست (يه هسيين) بنظراتهن ولت الأدبار في سرعة أسقطت فيها خفها ووقع في أيدي أصحاب الكهف.

ولما عادت الأم إلى الدار وجدت الفتاة نائمة بذراعيها ملفوفتين حول شجرة.

والآن كان بالقرب من الكهف جزيرة تسمى (توهوان)، كانت مملكة تتكون من أربع وعشرين جزيرة، وكانت مياهها الإقليمية تغطي عدة آلاف من الأميال. ومن ثم باع أهل الكهف الخف لمملكة الأقدام، وعندئذ أمر جميع نساء مملكته بتجربته، لكن الخف لم يجئ على مقاس واحدة منهن.

فارتاب الملك في أن يكون رجل الكهف قد حصل على الخف من مصادر غير مشروعية، فحبسه وعذبه، ولم يستطع الرجل التعس أن يخبر من أين جاء الحذاء. وأخيرًا وضع الحراس على منعطفات الطرق، وتفقد رجال البلاط كل البيوت، لعلهم يقبضون على من يكون الخف الآخر في حوذته، وقد تملكت الملك حيرة أية حيرة.

وفتشت جميع الدور فعثر على (يه هسيين)، وأمرت بتجربة الخفين فوجدا على مقاسها تمامًا، فما لبثت أن ظهرت في خفها وثوبها الحريري الأخضر وكأنها إحدى الآلهة، وأخبر الملك بالأمر، وأمر فأحضرت (يه هسيين) إلى داره بالجزيرة ومعها عظام سمكتها.

وبعد أن تركت (يه هسيين) الكهف، قتلت الأم والأخت بشظايا الحجارة المتطايرة، وأشفق أهل الكهف عليهما فدفنوهما في حفرة، وأقاموا لهما قبرًا أطلقوا عليه اسم (مقام النسوة الآسفات)، وعبدهما أهل الكهف

باعتبارهما إلهتي الزواج، وأي من الناس سألهما معروفًا في زواج، كان على ثقة بأن دعاءه مستجاب.

عاد الملك إلى جزيرته واتخذ من (يه هسيين) زوجته الأولى، وإبان العام الأول لزواجهما، سأل عظام السمكة المزيد من الجواهر والنفائس، حتى رفضت يومًا أن تجيبه إلى رغباته، ومن ثم أخذ العظام ودفنها قريبًا من البحر، ومعها مائة غرارة من اللآلئ، ومن حولها شريط من الذهب، فلما ثار عليه جنوده ذهب إلى البقعة (المكان الذي أودعه العظام)، وكان الموقد غطاه، ولم يعثر للعظام على أثر حتى يومنا هذا.

الفهرس